3

المغتربون

في نيسان 2002، بينما كان البنتاغون غارقاً في التخطيط للحرب، أدركت وزارة الخارجية أن من الأفضل البدء في التفكير في مرحلة ما بعد الحرب. فبدأ مكتب وزارة الخارجية لشؤون الشرق الأدنى بتوظيف مغتربين عراقيين ذوي خبرة في مجالات مختلفة وتنظيمهم في سبع عشرة لجنة لإعداد تقارير حول موضوعات ذات أهمية لإدارة العراق بعد صدّام، تقارير فنية حول موضوعات كالكهرباء والصحة والعدالة الانتقالية والشرطة. وكان من بين أولئك العراقيين الذين دعتهم الخارجية للمشاركة في مشروعها حول مستقبل العراق كنعان مكية. لكنه رفض.

كان مكية يدعو علناً إلى الإطاحة بصدام منذ أن تخلى عن اسمه المستعار في نهاية حرب الخليج في آذار 1991، لكنه لم يكن يثق في موقف الخارجية الأمريكية من الموضوع كاملاً. كان يرى أن موظفي الخارجية، وخاصة المستعربين في مكتب شؤون الشرق الأدنى، مجرد حصونٍ لحماية وضع الشرق الأوسط – ذلك النوع البيروقراطي الذي كان دائماً يفضّل ترك صدّام في الحكم لأجل «الاستقرار». كان مكية يعتقد أنهم مساومون بمجاملتهم للحكام الديكتاتوريين العرب السنة في الشرق الأوسط، وأنهم لا يؤمنون بإمكانية تحقيق الديمقراطية العربية. وفي ضوء المستجدات الخطيرة التي حملها الحادي عشر من أيلول، كانوا جزءاً من المشكلة. الآن حين لم يعد تغيير النظام في العراق مجرد سياسة أمريكية رسمية، ولكن محلاً للضغط والتخطيط المكثفين في واشنطن، كان مكية قلقاً من أن الخارجية –ووكالة الاستخبارات الأمريكية المتعاطفة فكرياً– ستحاول توجيه هذه السياسة نحو «شخص مثل مشرّف، شخص ذي عقلية إصلاحية، وثقافة غربية، شخص من النوع العسكري»، في قالب الجنرال الباكستاني الذي استلم السلطة عام 1999. أو بعبارة أخرى، حليف قوي (وليس ديمقراطية). لم يرد مكية أي دور من هذا النوع في تغيير النظام. لم يكن مكية يثق بـ«ميسّر» مشروع مستقبل العراق بالتحديد، وهو موظف في المكتب اسمه توماس

ووريـك. وقد سـمع مكية ووريك، في أحد الاجتماعات في ديترويـت يثني على جنرال عراقي سابق وصف الديمقراطية بجيش يعمل بشكل جيد.

أخـبرني مكيـة في وقت لاحـق من تلك السـنة بـأن «بعض النـاس يتحدثـون عن تغيير ديمقراطـي»، مشـيراً إلى المحافظين الجـدد في البنتاغون، وفي مكتب نائـب الرئيس الذين دعموا صـديق مكية أحمـد الجلبي، بعبع الخارجية الأمريكيـة، بحماس. لكنهم فقط بعض النـاس، وهنـاك آخرون يعتقدون أن هذا كله كوم من القمامة، وأنه ليس إلا سـخافة. «إنهم موجودون بالفعل. إنهم في وزارة الخارجية، كما أنهم في وكالة الاسـتخبارات المركزية الآن. وهم لاعبون أقوياء جدًّا».

بدأت ورشـات العمل المختلفة لمشروع مسـتقبل العراق بالاجتماع في تموز. وفي أوائل آب، أخذ مكية عائلته للتخييم خارج واشـنطن العاصـمة. وفي أحد الأيـام وجد الوقت للمغامرة والذهـاب من المخيم إلى العاصـمة، حيث قابل موظفي الخارجية، بمـن فيهم رئيس مكتب العراق في شـؤون الشـرق الأدنى، وهو موظف خارجي سـابق اسـمه ريان كروكر. فوجد أن الخطاب قد تغير: فالمسـؤولون يتحدثون الآن عن الديمقراطية في العراق. فهل سيعيد مكية التفكير في الأمر؟

قـرّر أن يتحداهـم؛ ليثبتوا ذلك. وشـرح لي فيما بعـد: «كنت أحاول أن أوقعهم في شـر أعمالهم، وأن أحصـل على شيء يمكن أن أمسـك به حكومة الولايات المتحدة». فوافق مكية على المشـاركة في مجموعـة عمل المبادئ الديمقراطية للمشـروع، واقترح مناقشـة التقرير النهائـي للمجموعة في مؤتمر مخطط له للمعارضـة العراقية في المنفـى. فوافق الأمريكيون برحابـة صـدر. كانـت اللجنة تضـم اثنين وثلاثـين عراقياً، معظمهـم قد أُرسـلوا ممثلين للأحزاب والمجموعات السياسية المختلفة في المنفى. «كان بعضهم سياسيين مأجورين»، قال مكية مضـيفاً: إن هذا كان ينـاسـب الخارجية الأمريكية التـي أرادت وثيقة غير محرجة، لا تقـدم خيارات صـعبة، ولا تحرج أحـداً. «كنت أكـره أن أكتب ذلك في اللجنـة. فأنا لم أكن سياسـياً في الواقع. سـأقوم بهذه الأمور، وأقول هذه الأشياء التي يعتقد النـاس أنها لا تقال، وليكن ما يكون. هذا ما يعجب العراقيين الذين يدعمونني فهذه طبيعتي، وهذا ما تدور حوله جميع كتبي بشكل أو بآخر. لن أتوقف عن فعل ذلك. لكنه لن يجعلني سياسياً بالفعل، للسبب نفسه».

لم يكن مكية مهتماً بآراء معظم أعضاء اللجنة. كانت كلمة «شامل» تثير أعصابه. وكما ذكر أحد مستشاري وزارة الخارجية الأمريكية عن المشروع، في خطاب رسمي معتدل: «لم يكن مكية يهتم بالبروتوكولات القياسية للعمل في اللجنة». بدلاً من ذلك، ترك هو واثنان من أصدقائه وزملائه المقربين – رند رحيم، مدير مؤسسة العراق القائمة في واشنطن، وسالم الجلبي، المحامي في لندن وابن شقيق رئيس المؤتمر الوطني العراقي – الآخرين في الخارج، واستولوا على كتابة التقرير، وكانوا طوال الوقت يقاومون ضغط وزارة الخارجية لإصدار شيء معتدل من الناحية السياسية. وكانت المجموعة الصغيرة تعمل ضد التيار لإعداد مخطط تفصيلي لنقل العراق من حكم الحزب الواحد إلى الديمقراطية. لم يكن مكية يسعى إلى وثيقة من النوع الذي يمكن أن تنتجه اللجنة.

«إنه المهندس المعماري الذي بداخلي»، قال مكية وهو يقدم الشاي الياباني البارد في كامبريدج في أوائل كانون الأول. وقبل عقد مضى، كان مكية قد اعترف قائلاً: «المهندسون المعماريون مصابون بجنون العظمة».

كان هذا أيضاً التروتسكي[1] السابق الذي بداخله. ذلك أن اسم ليون تروتسكي كان في مكان ما بداخل مكية –في مكان غير بعيد– ومعه الفكرة التروتسكية عن قائد فكري طليعي، يرغم التاريخ على التحرك في الاتجاه الذي يريد. غادر مكية بغداد عام 1967 للدراسة في معهد ماساشوستس للتقنية، وفي الصيف بعد السنة التمهيدية استلمت الفئة الأكثر تطرفاً في حزب البعث العربي الاشتراكي السلطة بانقلاب – ربما يكون أقل الأحداث ملاحظة وأسرعها نسياناً بين الأحداث اليوتوبية الكثيرة التي حدثت عام 1968، وكانت تحمل فكراً طالب بانحلال الهوية الفردية بشكل كامل في «العروبة» الشاملة للدولة، وهو فكر وصفه البعثيون أنفسهم بأنه شكل من أشكال الحب. وما لبث أن أعقب ذلك إعدام أشخاص مشتبه بأنهم جواسيس صهاينة أمام الحشود الكبيرة في ساحة التحرير في بغداد، ووقع العراق في مدة من الخوف امتدّت خمساً وثلاثين سنة، لم يعد مكية في أثنائها إلى بلده قط.

انضم مكية إلى السياسة اليسارية في المهجر في أكثر نقاطها خيالاً –بوصفه اشتراكياً ثورياً من الشرق الأوسط–. أثّرت فيه حرب الأيام الستة والقضية الفلسطينية، كما أثّرت

(1) نسبة إلى تروتسكي وهو مناضل شيوعي (المترجم).

في جيل كامل من الشباب العرب، وكان مكية مدة من الزمن عضواً في الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين. لكن الصراع كان صراعاً طبقياً حسب تحليله ورفاقه الماركسيين. كانوا يرون أن العمال في المصانع والمزارع التعاونية الإسرائيلية يمكن أن يضعوا أيديهم في أيدي العرب المضطهدين للتخلص من نير الإمبريالية والإقطاعية والرأسمالية. لكن في سياسة الشرق لم تكن هذه إلا وجهة نظر الأقليّة، مما يعني أن مكية كان يتبع رافداً منفصلاً عن الموجة العظيمة للقومية العربية التي تدفقت في الستينيات. (أما فيما يخص الإسلام السياسي، فلم تكن للموجة التي أتت بعد ذلك، عندما ظهر ضعف وفساد الأنظمة القومية، علاقة بمكية العلماني الملحد بشدة). وعلى الرغم من ذلك فقد رمى مكية وزوجه الإيرانية المولد، بنفسيهما في عالم سياسة المهجر، أولاً في كامبريدج، وبعد ذلك في لندن، بوصفهما ناقدين فدائيين للقوى الغربية، ولا سيما الولايات المتحدة.

كانا يتابعان الأحداث التي تدور في وطنهما من بعيد، في أثناء سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين: بينما تحوّلت حركة التحرير الفلسطينية إلى الإرهاب، وانجرفت لبنان في حرب أهلية تشابهت فيها جميع الفصائل في البربرية، ووقعت إيران تحت سلطة الملالي الثيوقراطية الذين فرضوا حكماً من الرعب، وتم جرّ العراق وإيران إلى حرب لم يبدُ أن لها نهاية، وأزهقت حياة جيل كامل في كلا البلدين. وفي نقطة ما من هذه الأحداث، تغير تفكير مكية.

قال مكية: «لم يعد بمقدوري أن ألوم الولايات المتحدة على ذلك»، ربما كان هذا تحولاً زلزالياً في تفكيري، لم يكن مجرد بعد عن الماركسية على أساس بعض المبادئ العامة، كلا، لقد كانت تجربة محسوسة بمشاهدة الحرب الأهلية اللبنانية، التي لم يكن لها علاقة بالفئات الماركسية. وبمشاهدة الثورة الإيرانية من جديد، هُزمت الفئات الماركسية. وبمشاهدة الحرب العراقية الإيرانية. لم تكن الولايات المتحدة، بل العراقيون والإيرانيون هم الذين كانوا يذبحون بعضهم حتى الموت. لقد كانت فكرة وجود أشخاص هناك في الخارج يبيعونهم الأسلحة محزنة بالطبع، لكنني لن أقلب أولوياتي رأساً على عقب، وأرفض أن أرى من هو المسؤول. لذا كان هذا الشعور بأن العلّة في عالمي بشكل أساس، وليس في الولايات المتحدة، وكان هذا هو التحول الزلزالي في نظرتي السياسية».

كان لهذا التحول مدلولات كثيرة. فإذا كانت العلّة تكمن بشكل رئيس في الجزء الخاص به من العالم، فإن جميع الأسماء التي تدل على النجاة الجماعية -الماركسية والقومية والبعثية والإسلامية- أصبحت الآن تبدو طرقاً مختلفة تؤدي إلى الجحيم. كانت المنطقة قد حاولت أن تقفز من العصور الوسطى في القرن الثامن عشر، إلى عقائد جديدة، معظمها مستورد، دون أن تتمتّع بذلك التغيير العميق، حيث كانت الشرعية منفصلة عن القوة والإيمان، وكانت حقوق الأفراد مقدّسة كأساس للحكومة. كان التنوير هو ما يحتاجه الشرق الأوسط. في عام 1984، سأل مكية في رسالة إلى صديق يساري: «هل من الممكن أن يكون ماركس اليوم في سياق سياسي شرق أوسطي أقل ثورية من فولتير مثلاً؟» وأصبح مكية تحررياً، حيث عاش حياة شبه هامشية في نيويورك وكامبريدج، يدقّق صفوفاً في الجامعات المحلية، ويقرأ أعمال أرندت وهويز ولوك في المكتبات للمرة الأولى، ويعمل بجد على مخطوطة كتابه (جمهورية الخوف).

أما بوصفه عراقياً على علاقة بالسياسة، فقد كان مكية شيئاً نادراً في العالم العربي؛ حيث كان هناك الكثير من المناضلين التحرريين: لكن لم يكن هنالك إلا قلّة من المنشقّين. فالشعور العربي أن العرب ضحايا للعدو الأجنبي الإمبريالي والصهيوني، لم يترك مجالاً لظهور مصري مثل سولزينشتاين أو سوري مثل هافال. لم ينكر مكية عدالة القضية الفلسطينية، إلا أنه بدأ يشعر أنه لا يجب على العرب أن يعدّوها مفتاح حل المشكلات الإقليمية؛ ففلسطين لم تعد القضية الأولى، سواء من حيث الوقت أو الضرورة الأخلاقية. لم يعد الموضوع الحاسم هو الحرية القومية، وإنما الديمقراطية القائمة على الحقوق، وبشكل أعمق، قيمة الحياة. وعلى الرغم من أن الاستعمار قد انتهى منذ وقت طويل، لم يزل موقف المعارض الديمقراطي -الناقد للديكتاتورية المحلية- يبدو في كثير من الأوساط العربية محل شك كالردّة، خاصة عندما يصل إلى الاستنتاج النهائي، كما فعل مكية في نهاية حرب الخليج، حيث تقدّم ودعا أمريكا للإطاحة بالطاغية في بغداد.

بحلول عام 1991، كان مكية قد وصل إلى وجهة نظر مفادها أن خطايا أمريكا في الشرق الأوسط -التي كان في ذهنه منها الكثير- كانت أخطاء سببها السهو، وليست متعمّدة. لم تكن أمريكا مؤثرة في المنطقة إلا بصفة محرك قدير للدمى. فسقوط الشاه، وأزمة الرهائن الإيرانية، والمحاولة الفاشلة لإنقاذهم، والتفجير الضخم للقاعدة العسكرية في بيروت الذي

تبعه انسحاب عاجل من لبنان، وأزمة الاختطاف، والصمت الذي قابل إبادة صدام للأكراد بالغاز: عرض تلو آخر للضعف الأمريكي أعدّ صداماً للاعتقاد بأنه يستطيع غزو الكويت بحرّية. كانت الولايات المتحدة قوة محركة للشر في المنطقة ليس بسبب ما كانت تقوم به، وإنما بسبب ما لم تستطع القيام به. كان مكية قد دعا قبل ذلك العرب أنفسهم للثورة لمقاومة عدوان صدام (كان العربي الآخر الوحيد الراغب بالدفع في هذا الاتجاه تاجر سعودي اسمه أسامة بن لادن، على الرغم من أن الأسباب كانت مختلفة تماماً)، لكن هذه المهمة قد تُركت لجيوش القوات الغربية. وبهزيمة الجيش العراقي في انسحاب مهين خلف الحدود على طول «طريق الموت»، ومع تزايد أعداد الشيعة والأكراد الداعين للإطاحة بالنظام البعثي، أصبحت أمريكة في وضع مناسب لتمحو سجلّها المخزي في المنطقة. لكن حرب الخليج انتهت باتفاقية لم تترك صداماً في منصبه فقط، بل سمحت لطائراته المروحية بسحق آلاف العراقيين الذين كانت لديهم بارقة أمل. كانت هذه في رأي مكية خطيئة السهو الكبرى.

بعد الحرب، سافر مكية عن طريق المنطقة الكردية إلى شمال العراق للحصول على ملفات بعثية رسمية لمعركة الأنفال، ومذابح الأكراد في أواخر الثمانينيات، ولتصوير فيلم وثائقي لقناة BBC بعنوان «حقول القتل لصدام». وكان العراقيون والكويتيون في كردستان، وبعدها في لندن يسعون إلى مكية؛ ليروي قصصهم حول الإبادة الجماعية، والاحتلال والقمع الدموي للمتمردين. ولو قام ببساطة بجمعها في كتابه الآتي الذي سماه «القسوة» لما أصبح محوراً للخلاف. لكن غضبه من رضا المثقفين العرب عن جرائم صدام كان شديداً، ولم يكن كتاب «قسوة وصمت»، الذي صدر عام 1993، تأملاً هادئاً، وإنما كان صرخة من القلب. سعى مكية إلى تعرية اعتذارات العالم العربي ووضع الحقيقة السيئة نصب أعين القرّاء. كان تصوير الروائح الكريهة التي تسببها وحشية الإنسان يعمّ شهادة الشهود. كتب مكية «لم يعد من الممكن أن يكون هناك رومانسية أو بطولات مزيفة في العالم العربي بعد الآن. لم يعد هناك إلا إرث الألم الذي يجب توثيقه باستخدام لغة جديدة وأسلوب جديد».

كان كتاب «قسوة وصمت» كتاباً استفزازياً. وكان من بين المثقفين الذين وجّه الاتهام لهم إدوارد سعيد، البروفسور الفلسطيني المولد الذي يدرّس الأدب في جامعة كولومبيا، ومؤلف الدراسة الرائدة «الاستشراق»، التي علّمت جيلاً كاملاً من المثقفين العرب الشباب أن ينظروا

إلى عالمهم بوصفه ضحية للإمبريالية الثقافية الغربية القديمة. إدوارد سعيد الذي كان قد رفض في نثره الأدبي المنمق كتاب «جمهورية الخوف» ووصفه بأنه معادٍ للعرب، الذي ألقى اللوم على الإمبريالية الثقافية الغربية في حرب الخليج، الذي (كما أشار مكية) قد عبّر عن شكه في أن يكون نظام صدام قد أباد الأكراد بالغاز فعلاً. إدوارد سعيد - المفكر العربي البارز في الغرب، الذي كان بطلاً ثقافياً لدى العرب واليساريين الغربيين على السواء - لم يكسب احترام العراقي الأصغر سناً والأقل شهرة. بلغ أسلوب مكية النثري، البسيط والشديد، حد التوبيخ: فقد قال: إن لغة سعيد وأفكاره كانت جزءاً من الحطام الأخلاقي للمنطقة. كان هذا أكثر من خلاف أجيال بين اثنين من الكتّاب العرب في المهجر. فقد كانت المنافسة الأكبر بين نوعين من أنواع السياسة، وبين تفسيرين لدور المفكر ومصدر الهزيمة العربية.

انهال مؤيدو إدوارد سعيد في العالم الأكاديمي بالإساءات على كتاب «قسوة وصمت». أما مكية الذي كان بطبعه نسيج وحده، فقد انسحب من الصورة بقية التسعينيات وتفرّغ لكتابة الرواية التاريخية في شقته المليئة بالكتب في كامبريدج. ازداد اسم إدوارد سعيد شهرة، بينما تلاشى كنعان مكية في الظلام. لكن بعد عقد من الزمن على حرب الخليج، حين برز مكية فجأة بصفة مؤيد شديد الوضوح لحرب جديدة ضد العراق، حرب تنهي ما لم تنههِ الحرب الأولى، عاد سعيد لمهاجمته بغضب، كأن الخلاف بينهما لم يتوقف عن الحركة تحت السطح.

في مقال لإدوارد سعيد في صحيفة الأهرام المصرية، دحض آراء مكية حول الشكل الديمقراطي والفيدرالي للعراق. وبدلاً من ذلك، أراد أن يعرف «من هو وما هي الخلفية التي أتى منها». وأجاب: إدوارد سعيد عن الأسئلة التي طرحها قائلاً: إن مكية رجل فاشل، واهم عديم الشعور، يعيش «بين الدول والثقافات دون أن يكون له التزام واضح بأي منها (عدا مهنته الصاعدة)»، حريص على خدمة أسياده في الحكومة الأمريكية (حيث تخيل إداورد سعيد أنه يشغل منصباً في وزارة الخارجية) تماماً كما كان والده المهندس محمد مكية سابقاً لدى صدّام. (كان هذا صحيحاً، مدة قصيرة في أوائل الثمانينيات، وقد سبّب ذلك خلافاً بين كنعان ووالده استغرق سنواتٍ حتى زال. وكذلك كان صحيحاً أن مكية قد استفاد بشكل غير مباشر عبر أرباح حصة والده في الشركة؛ فقد استخدم مكية تلك الفوائد لكتابة «جمهورية الخوف». لكن اتهام إدوارد سعيد لمكية أكثر من مرة بأنه قد عمل لدى

صدام لم يكن صحيحاً)، وقد كتب إدوارد سعيد مرّة موافقاً على ميل العرب إلى سؤال أي متحدث، «من وراءه؟» انظر خلف كنعان مكية وستجد ريتشارد بيرل وبول وولفوفيتز ودونالد رامسفيلد. كان هذا كافياً بالنسبة لإدوارد سعيد.

وهكذا، فقد كان هناك نوع من التفكير التآمري في هجوم إدوارد سعيد، بالإضافة إلى سيل ملحوظ من الإهانات الشخصية. واستمر الاستعلاء المتحذلق الذي اعتاد إدوارد سعيد التحدث به في التصاعد. لكن إمكانية أن كنعان مكية قد يكون الوحيد الذي يمثل «الصوت والمثل لعراق المستقبل»، بينما يمر التاريخ بإدوارد سعيد، وقضيته، القضية الفلسطينية، التي تحولت إلى أنقاض، كانت سخيفة لدرجة أنها بدت مثيرة نوعاً من الحزن.

أثار المقال ضجة في عالم السياسة العربية في المهجر. وقد تحدثت إلى مكية بعد صدوره بمدة قصيرة. لقد كان يسعى إلى الفكري، وقال: «يعبّر إدوارد سعيد عن فكر سائد في الثقافة السياسية العربية، التي كانت جزءاً من مرحلة ما بعد عام 1967، وهو النظر إلى القضية الفلسطينية على أنها تأتي في المقدمة. لكن إذا نظرت إليها من وجهة نظر العراقي، فسيقول لك: هل لديك مليون قتيل؟ كم شخصاً مات في انتفاضتكم الثانية؟ ألف وخمس مئة شخص؟» وعاد إلى الحديث عن إدوارد سعيد قائلاً: «أعتقد أنه حقق رقماً كبيراً بالفعل. فسياسته بالمعنى العميق هي ما نسمّيه في السياسة العربية، وباللهجة السائدة، سياسة رافضة، وقد يكون هذا هو السبب العميق لغضبه مني. أنت ترفض، ترفض، ترفض، لكنك لا تعمل شيئاً لتحسين الوضع». لكنني مع ذلك أستطيع أن أقول: إن مكية كان مجروحاً ومصدوماً لشدة هجوم إدوارد سعيد، وكان أسلوبه الانفعالي حاداً لكنه نظيف، يستهدف الفكرة وليس الرجل. وكان يميل إلى تقويم الناس ظاهرياً، وليس البحث عن برامج مخفية أو دوافع غير عقلانية. وتوقع مخاطبته بالطريقة نفسها، ولأنه كان حسّاساً جدًّا لمصلحته، فقد جعله التاريخ الصاخب الذي ألقى بنفسه فيه الآن ضعيفاً. لم يكن مكية مجرّد إنسان بسيط -وهي صفة مقلقة- إذا فكّرنا في المشروع الذي كان على وشك التوقيع عليه.

● في النهاية، من كان وراءه؟

نقل التاريخ مكية من السياسة الراديكالية اليسارية إلى التحررية، إلى الاعتقاد بأن حقوق الإنسان، وليس القومية أو الاشتراكية، هي القضية الأسمى، وأنها، في بلده، القضية الثورية

الوحيدة. أما من حيث الانتماء السياسي، فقد ارتبط بالجناح الليبرالي للحزب الديمقراطي. لكن بوصفه عراقياً يعيش في بداية القرن الحادي والعشرين، جعلته قضيته حليفاً للمحافظين الأمريكيين الجدد. قلة منهم كان في عقولهم اسم ليون تروتسكي، لكن الأرجح أن معظمهم يرون رونالد ريغان مَثلهم الأعلى. لم يكن التوافق تاماً. فقد كان المحافظون الجدد يعدون القوة الأمريكية بطريقة مسيحية -أي أنهم كانوا قوميين- لكن مكية لم يكن مهتماً إلا بما يمكن للقوة الأمريكية تحقيقه في العراق نيابةً عن التحرريين المثاليين.

في الأشهر الآتية من عام 2002، قام مكية بعدة زيارات لواشنطن، حيث التقى ببول وولفوفيتز وغيره من المدنيين في البنتاغون، ثم التقى موظفين متشددين رفيعي المستوى في مكتب نائب الرئيس، وبعد ذلك تشيني وكوندوليزا رايس في البيت الأبيض. في هذا الاجتماع كان مكية والموظفون الأمريكيون يتملقون بعضهم ويخمّنون ما في عقول بعضهم. كان الأمريكيون يريدون أن يكسبوا تأييد مثقف عراقي كبير لحربهم، وكانوا يريدون معرفة ما يعتقد مكية أن الجنود الأمريكيين سيجدونه في العراق. أما مكية فقد كان يريد أن يعرف: هل الإدارة الأمريكية ملتزمة برؤيته - رؤية ديمقراطية للعراق؟. قال المحافظون الجدد في البنتاغون وفي مكتب نائب الرئيس ما أراد مكية سماعه بالضبط. وعلى عكس الموظفين البيروقراطيين في وزارة الخارجية، كان يبدو أنهم يشعرون بشكل عاطفي بأن الشرق الأوسط، بدءاً بالعراق، يمكن أن يتغير بالديمقراطية. كان لديهم ما يدعوهم للاعتقاد بذلك، ولم يكن مكية يشاركهم في تلك الأسباب كاملة، لكن كل ما يهمه كان منطقة التوافق.

«إن كان هذا هو الشيء الصحيح الذي يقوم به الأشخاص الخطأ، فأنا سأبقى أعمل معه»، قال مكية عندما سألته إن كان قلقاً من حلفائه الجدد؟ «قد يظهر في النهاية أن هذا هو الحال. لكن السياسة أعقد من ذلك كثيراً. فقد رأيت الكثير من الأشخاص الجيدين فعلاً يقومون بأشياء رهيبة. من الصعب جدًّا الحكم بعد الآن». ورفض مكية طريقة التفكير التي دفعت إلى إنشاء «مدرسة وولفوفيتز» ضد «مدرسة إدارة كلينتون» وأصدر الحكم وفقاً لذلك. «أعتقد أن إحدى الطرق التي ابتعدت بها عن السياسة الأيديولوجية هي أنني أفضّل أن يفكّر الناس فيّ على أنني مفكر أخلاقي أكثر. يجب أن يكون لديك معايير أخلاقية، مبنية بشكل يجعلك غير قادر على القول: إن هؤلاء أشخاص مخطئون، وهؤلاء أشخاص مصيبون. فهذا لم يعد أمراً سهلاً».

كان الاختبار الذي وضعه مكية هو: هل كان أولئك الذين في السلطة يرغبون في القيام بهذا الأمر الأخلاقي: الإطاحة بصدام، وتحقيق الديمقراطية؟. وكان يبدو أن إدارة بوش، بقيادة المحافظين الجدد، جادة فيما يتعلق بكلا الأمرين. فيما يخص رجلاً له تاريخ مكية، كان هذا وعداً بالنجاة، ولم يسأل نفسه إن كان هؤلاء الأمريكيون، أو أي أمريكيين، قادرين على تحقيق أهدافه. لم يتوقف لحظة ليفكر في أن الضرر الذي كانت سياستهم تحدثه لحلف الأطلسي والأمم المتحدة، والفرض المتغطرس للأشخاص الذين يقودون الإدارة، والادعاءات المشكوك فيها حول أسلحة الدمار الشامل، والارتباطات بالإرهابيين، وأفكار رامسفيلد عن التحول العسكري، وتاريخ مجلس حرب بوش وأيديولوجيتهم – أن هذا كله يمكن أن يسهم فعلياً في عدم تحقيق حلمه. لم يستطع مكية أن يعدّ هذه الأمور أكثر من أمور ثانوية مقارنةً بالفرصة الرئيسة.

وعلى طول الطريق، كان مكية يكسب العداوات. في الخلافات الداخلية بين وزارة الدفاع ووزارة الخارجية، حتى عندما استمر في العمل في مشروع وزارة الخارجية حول مستقبل العراق، كان مكية يقف علناً في صف البنتاغون. وقد جرح أسلوبه المهووس في مجموعة العمل للمبادئ الديمقراطية شعور بعض من زملائه العراقيين في المهجر. واتخذ قراراً مصيرياً بربط سمعته بأكثر المغتربين إثارة للجدل.

أحمد الجلبي، سليل عائلة شيعية ثرية وذات قوة سياسية، كان قد غادر بغداد، وهو مراهق عام 1958 بعد الانقلاب القومي الذي أطاح بالملكية. تعلّم في إنكلترة وفي الولايات المتحدة، حتى حصل على دكتوراه في الرياضيات النظرية من جامعة شيكاغو. لكن الجلبي صنع أول ثروة وسمعة له في الأردن، بوصفه مدير مصرف مقرّباً من العائلة المالكة. ارتدى البِدْلات الإنكليزية وربطات العنق الحريرية، وكان معروفاً بذكائه الواسع، إلى أن عرف أكثر بسبب فضيحته المالية. فقد انهار مصرف البتراء الذي يديره الجلبي عام 1989، مما أدى إلى تدمير عدة عائلات عراقية، وهرب الجلبي من عمان إلى لندن بعد صدور أمر القبض عليه مباشرة. وحين التقى به مكية في محافظة صلاح الدين بكردستان العراق، في تشرين الأول عام 1992، في اجتماع تنظيمي للمجلس الوطني العراقي الجديد، كان الجلبي قد أدين مؤخراً غيابياً من قبل محكمة عسكرية أردنية بتهم تتضمن الاختلاس والسرقة

والتزوير وحكم عليه بالسجن مدة اثنين وعشرين عاماً مع الأشغال الشاقة. ادّعى الجلبي أن تلك التهم كانت لأسباب سياسية تتعلق بمعارضته لنظام صدام، الذي كانت الأردن تأخذ منه النفط بأسعار رخيصة. أما المسؤولون الأردنيون فلطالما أصرّوا على أن الجلبي محتال. على أقل احتمال، كان الجلبي مديراً مهملاً في الإدارة وحفظ السجلات، وهي ممارسات استمر بها بوصفه رئيساً للمجلس الوطني العراقي عندما بدأت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، التي أدت دوراً أساساً في إنشاء تلك المنظمة بعد حرب الخليج، بتمويل المجلس بعشرات الملايين من الدولارات. كما ساعدت الوكالة في تحويل أحمد الجلبي من مدير مصرف سيئ السمعة إلى زعيم معارضة. وبعد بضعة أشهر من إدانته في نيسان 1992، كان الجلبي قد شق طريقه إلى قمة السياسة العراقية في المهجر.

لم يهتم مكية بالماضي المظلم، لكنه كان معجباً بعقلية الجلبي. مرة كانا يجلسان على مقعدين متجاورين في رحلة جوية عام 1994، وحين قام الجلبي إلى الحمام، نظر مكية إلى الكتاب الذي كان يقرؤه: مجلّد ثخين حول إعادة إعمار ألمانية بعد الحرب العالمية الثانية. وكانت تلك بداية لانجذاب متبادل. رأى مكية في الجلبي سياسياً ملكياً متميزاً، نتاج للملكية في المدة التي كان فيها البرلمان والرجال المثقفون العلمانيون يحكمون البلاد. اعترف مكية بأن الجلبي ليس لديه خبرة في السياسة الديمقراطية. لم يكن لارتقائه لمنصب رئيس المجلس الوطني العراقي علاقة بالانتخابات. «أكبر نقاط الفشل لديه هي أنه يشبه شخصية من الشخصيات النموذجية في أدب ت. إ. لورانس في القرن التاسع عشر، خلف الكواليس، ويقوم بسياسة القوة الكبرى. لم تكن السياسة الجماعية تعني له شيئاً». ومع ذلك، أقنع مكية نفسه بأن الجلبي يشاركه معتقداته الليبرالية الديمقراطية. كما كان يعتقد أن المجلس الوطني العراقي، بخلاف الأحزاب القائمة، التي أُنشئت قبل سنوات في صورة حزب البعث، «مفتوح وواضح ولا يعمل بوصفه منظمة سرية. وأنه لا يمكن أن يتآمر». رأى مكية في الجلبي رجل المستقبل، وقائداً للعراقيين ذوي الفكر المستقل الذين حرّروا أنفسهم من إيديولوجيات المنطقة الفاشلة. وقد قال لي عنه مكية: «ليس فيه بقايا من السياسة القومية العربية. إنه لا يفكر بوصفه شخصاً عربياً أو شيعياً أو متديّناً. ولربما يكون هو المرشح الأوفر حظاً من بين أولئك القادرين على قيادة العراق للمضي في الاتجاه الديمقراطي».

كان المجلس الوطني العراقي في بداياته منظمة شاملة للمعارضين العراقيين ضمّت الشيوعيين والملكيين والإسلاميين والأكراد والبعثيين السابقين والضباط العسكريين السابقين والتحرريين المتنوعين بمن فيهم كنعان مكية في تعايش مضطرب وغير منضبط في معظم الأحيان. شق الجلبي طريقه ليصبح رئيس المجلس الوطني العراقي، وفي النهاية حدّد مقرّه في حي نايتبريدج الفخم في لندن. لكن مع محاولات المجلس الانقلابية الفاشلة والهزائم الدامية في منتصف التسعينيات، انقلب الجلبي والمحسنون إليه في واشنطن على بعضهم. ومنذ ذلك الوقت، نظرت وكالة الاستخبارات المركزية ووزارة الخارجية إلى الجلبي بشك وازدراء واضحين. وبدأت الوكالة تبحث عن فرسان بيض غيره، وأبعدت الأحزاب الكردية والشيعية والعسكريين السابقين عن قيادة المجلس الوطني العراقي.

كان نوح فيلدمان، بروفسور القانون الذي عمل مستشاراً دستورياً لسلطة الاحتلال في العراق، يصف الجلبي بأنه: «جي كاتسبي لحرب العراق». بعد عام 1996، بدأ الجلبي يعمل على إعادة تشكيل ذاته من جديد. وعلى الرغم من معارضة إدارة كلينتون، تخلى عن جهوده التي تكللت بالفشل للإطاحة بصدام، انطلاقاً من كردستان العراق وأنشأ قاعدة جديدة في واشنطن، بخطة جديدة. وبمساعدة الممثل الأمريكي فرانسيس بroوك، النصراني الإنجيلي ومسؤول العلاقات العامة الذي التقى الجلبي للمرة الأولى في لندن، بينما كان يعمل مع وكالة الاستخبارات المركزية، بدأ الجلبي بالتقرب من اليمين الجمهوري. كان ريتشارد بيرل هو من ساعده في تبييض صفحته في واشنطن، حيث عرّفه إلى شبكة من المساندين في مؤسسات مثل معهد المؤسسات الأمريكي، ومشروع نحو قرن أمريكي جديد، وكونغرس غينغريتش. كما أن الجلبي تزلّف لديك تشيني، الذي كان يدير شركة هاليبرتون مع بول وولفوفيتز، الذي رأى في الجلبي مثقفاً ذا فكر مماثل، كما تقرّب إلى محافظين في الكونغرس من أمثال ترينت لوت، وجيسه هيلمز، ونيوت غينغريتش. كان هؤلاء الجمهوريون جميعهم سعداء جدًّا بإلقاء فشل كلينتون في العراق على عاتقه وحده.

وها هو ذا عراقي كان يقول جميع الأشياء الصحيحة. في حزيران 1997، أخبر الجلبي جمهوراً في المعهد اليهودي للشؤون الأمنية، وهي المجموعة التي تبنت المؤتمر الذي صدرت عنه ورقة إستراتيجية «Clean Break» (انفراج كامل) بأن المجلس الوطني العراقي يستطيع

الإطاحة بصـدام بمساعدة أمريكية بسيطة وإقامة دولة ديمقراطية ترتبط بروابط صداقة مع إسـرائيل. كما كان يبدو أن المجلس الوطني العراقي ينتج مدداً لا ينضـب من المنشـقين الذيـن يملكون معلومات سـرّية جدًّا عن جهود صـدّام لإعادة إنشـاء برامج الأسـلحة غير التقليديـة، ومعسـكرات التدريب للإرهابيين. وحين وافق الكونغرس واضـطر كلينتون الذي أُضـعف سياسـياً على التوقيع على قانون تحرير العراق، أصبح المجلس الوطني العراقي هو المستفيد من المزيد من ملايين الدولارات في التمويل الحكومي. استفاد الجلبي من التنافس الحزبي في أواخر سـنوات إدارة كلينتون في واشنطن بشكل ممتاز، وجعل من نفسه العراقي المفضل لدى الجمهوريين الذين كانوا على وشك العودة إلى السلطة.

لـذا، عندما أصـبحت إدارة بوش الجديدة جادّة في تغيير النظـام، ليس من حيث المبدأ وعبر مجموعات مريبة مـن مجموعات العراقيين في المهجر، ولكن بإرادة كاملة من الجيش الأمريكي، كان من الطبيعي أن يعود كنعان مكية وأحمد الجلبي أحدهما إلى الآخر. أخبرني صـديق لـكلا الرجلين: «كان أحمد يريد مفكـراً، مفكراً تحررياً ديمقراطيـاً. فوجد كنعان. وكان كنعـان يريد رجـلاً قوياً ملتزماً بأفكاره عـن الديمقراطية التحررية، فلم يسـتطع أن يجـد إلا الجلبي». ورث مكية حروب الجلبي القديمـة مع وكالات الحكومة الأمريكية –وزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات المركزية– وجعلها حروبه، لكن بخلاف الجلبي، لم يولد مكية سياسياً، وتعامل مع دوره الجديد دون الدماثة والمراوغة الضروريتين.

التقى فيصل إسترابادي، المحامي ذو الوجه الحاد في شيكاغو، الذي كانت عائلته تسكن بالقرب من عائلة الجلبي في بغداد قبل عام 1958، مكية للمرة الأولى في تجمّع للمعارضة في حزيران 2002. قال إسـترابادي، الذي كان سيصبح نائباً لسفير العراق لدى الأمم المتحدة في الحكومة الانتقالية لرئيس الوزراء إياد علاوي. «قال لي كنعان: إن العراق لديه ديمقراطي واحـد هو أحمد الجلبي»، «فكانت إجابتي: إذا كان هناك ديمقراطي واحد فقط، فهذا كثير مـن الديمقراطية بالنسـبة للعراق. كان مؤمناً بالجلبي لدرجـة التطرف، ودعم وجهة نظر المحافظـين الجدد، ووجهة نظر وزارة الدفاع، بأن مشـروع مسـتقبل العراق كان سيضـعف أحمد الجلبي. وقد عارض المشـروع؛ لأن الشبكة الأوسـع كانت تضعف أحمد الجلبي، كانت تلك هي الكلمات التي استخدمها».

في شـهر حزيران ذاته، قام دوغلاس فيث، وكيل وزارة الدفاع للشؤون السياسية، الذي كان يشرف على التخطيط لعراق ما بعد الحرب، بدعوة إسترابادي إلى البنتاغون. كان لدى فيث سؤال واحد: من الذي يدعمه إسترابادي في المعارضة العراقية؟ وقال لي إسترابادي: «كنت أعرف الإجابة التي أرادها. لكنني قلت: إنني أدعم مبادئ المجلس الوطني العراقي». لم يكن هذا كافياً، ففي أثناء شـهر، تخلى عنه المدنيون في البنتاغون، الذين كانوا يتقربون إلى إسـترابادي، ومع نهاية السنة أصـبحت عداوتهم له ظاهرة. في هذه الأثناء، كان مكية قد غيّر رأيه، وانضمّ إلى مجموعة عمل المبادئ الديمقراطية. وسرعان ما أدرك إسترابادي الذي كان عضـواً أيضاً أن مكية، بوصفه رئيسـاً للجنة التنسيقية، كان يريد السيطرة على كتابة التقرير. انسـحب بعض الأعضـاء؛ ودُفع ببعضهم خارجاً. استشـرت الضغائن التي كانـت في الحكومة الأمريكية في المجموعة. في إنكلترة، في الجلسـة الرسـمية الأولى، ذهل إسـترابادي في مساء أحد الأيام لرؤية توم واريك من وزارة الخارجية وسامانثا رافيش من مكتب تشـيني يقفان في الممر أمام مطعم كبير في لندن، يصيح أحدهما على الآخر. «كانت تلـك هي المـرة الأولى التي أدركـت فيها مدى عمـق الخلافات الشخصـية بين المحافظين الجدد، وبين أولئك الذين كانوا يعلمون عم يتكلمون؟».

لم يكن مكية مهتماً بإرضـاء الجميع، والوصول إلى إجماع يمكن أن يضمن عدم السماح لأحد بإفسـاد الأمر. كان مهتماً بالمنتج الديمقراطي أكثر من العملية الديمقراطية لمجموعة عمـل المبـادئ الديمقراطية. تم تنظيم الآراء المعارضـة في حواشٍ سـفلية، أو تم تذييلها في نهاية التقرير. وقد أكّد سياسي اقتصادي اسمه عصام الخفاجي التناقض في طريقة مكية في أحد الملاحق:

> تعليـق أخير على الإعجاب المبالغ فيه بالنفس، واقتباس تصـريحات، أو قرارات محددة -بغض النظر عن سخافتها- التي قام أحد أعضاء لجنة التنسيق بكتابتها أو القيام بها. وهذا، بالإضافة إلى الدور الكنسي للوثيقة التي قرّرت رفض ما لا ينسجم مع وجهة نظرها، يرسل إشارة تحذيرية لنا جميعاً حول ادّعائنا الديمقراطي، ونحن لا نزال في المهجر!

وقال فيصل إستر ابادي «يريد كنعان أن يكون العريس في كل عرس، والميت في كل جنازة».

ومع ذلك فإن «التقرير حول التحوّل إلى الديمقراطية في العراق» هو وثيقة خيالية. ولا يمكن أن تكون اللجنة قد كتبته: فقد كان فيه شيء مزعج لكل فرد من أفراد اللجنة؛ لأن مكية لم يخفِ ما تشير إليه أفكاره. فعند مناقشة الفدرالية، وحتمية مشاركة كردستان في الدولة العراقية المستقبلية، ناقش بأن المناطق التي تقوم على الهوية العربية والكردية ستؤدي إلى أمة مرقعة من مواطنين من الدرجة الثانية؛ ولضمان المساواة المطلقة، يجب أن تكون الفدرالية جغرافية وليست عرقية، والعراق الفدرالي لن يكون عراقاً عربياً بشكل رسمي. وحول العلاقة بين المسجد والدولة في عراق ذي أغلبية إسلامية، كتب مكية أن الفصل بين الدولة والمسجد «سيساعد في تحقيق الإمكانيات الإبداعية والروحية الظاهرة في الإيمان الديني عندما لا يكون مقيّداً بالمدّ والجزر السياسي». وهذا البلد العلماني غير العربي يجب أن يكون غير مسلّح، حسب النموذج الياباني، وهكذا لن يكون العراق أمة معتدية بعد الآن، وسيكون غير بعثي، حسب النموذج الألماني، لإزالة الأيديولوجية الاستبدادية من جذورها من الدولة والمجتمع. يجب إجراء محاكمات لجرائم الحرب، ولجنة للحقيقة والمصالحة، ولجنة لحقوق الإنسان. ويجب كتابة دستور تحرري، مع حماية لحقوق الأفراد والأقليات، قبل الانتخابات، وإلا، فإن الديمقراطية ستؤدي إلى استبداد الأكثرية. وأخيراً، لما كانت سياسة المعارضة غير موجودة ضمن عراق صدّام، يجب أن تكون نواة أول حكومة بعد صدام مشكّلة من مؤتمر المعارضة المسجّل في نهاية عام 2002 في لندن. ويجب إعدادها لتولّي السلطة في القسم الأول من العراق الذي تقوم أمريكة وقوات التحالف بتحريره (ويجب أن يتضاعف عدد أعضاء هذه الحكومة المؤقتة في العراق)، يجب تدريب آلاف المغتربين لتشكيل قوة أمنية لفرض القانون والنظام بعد سقوط النظام.

لم يعش مكية في العراق منذ خمسة وثلاثين عاماً، أي طوال سنوات حكم صدام، وفي التقرير حول الديمقراطية، كان يحاول أن يجد طريقة للخروج من كل ذلك التاريخ المخضب بالدماء. وبينما كان المغتربون يحلمون ويعانون، كانوا يستسلمون للتفاؤل أو اليأس، ويغرقون في عدم أهميتهم، ثم يثورون عليها. أخبرت كوندوليزا رايس رند رحيم،

زميلة مكية المقرّبة في أواخر تشرين الثاني أن مشكلة العراقيين المهاجرين هي أنهم «كالبولنديين في لندن»، أي كالحكومة البولندية في المهجر التي لم يكن لها أي تأثير في أثناء الحرب العالمية الثانية. كان المسؤولون الأمريكيون العنيدون يشمّون في العراقيين رائحة عدم المصداقية؛ لم يكن لأولئك العراقيين شأن بالإعداد لحكومات مؤقتة؛ فقد كان العراقيون الحقيقيون داخل البلاد. رفض مكية هذه الخطة، وعندما اتهمه الآخرون بأنه يرفض القبول بحقائق العراق، ألجم. قال مكية: «لا أريد أن أقبلها كما هي». «في النهاية، إنها حقائق سياسية. وهناك حقائق أخرى». من الناحية الفلسفية، كان مكية خلاصياً. كان مستعداً لأن يعتقد أن العراقيين داخل العراق متعطشون لحقائق جديدة، وأنهم هم الذين كان يؤمن بهم أنفسهم، إذا سمحت القيادة لهم برؤية الطريق. أما البلاد العربية الأخرى فقد كانت غارقة في إيديولوجيات معادية للغرب، لكن السنوات الكارثية لحكم حزب البعث كانت قد كوَّنت ما يمكن تسميته بالاستثنائية العراقية. حين قابل مكية رايس في البيت الأبيض، حاول اختصار نصف عمر من التفكير. وأخبرها أن الوعي السياسي للعراقيين قد انحرف عن جيرانهم العرب بشكل مهم. فبينما كان العالم العربي والإسلامي ينتقد الولايات المتحدة لتدخلها في الشؤون العراقية الداخلية، كان العراقيون ينتقدون الولايات المتحدة لعدم التدخل بشكل كافٍ. لهذه الأسباب، قال: «يمكن تخيّل نوع جديد من السياسة في العراق». فالعراق مؤهل بشكل فريد ليصبح أول دولة عربية ليبرالية. كان التقرير حول الديمقراطية محاولة من مكية لإحداث النتيجة المطلوبة.

في مساء بارد في أواخر عام 2002 قال لي مكية في شقته في كامبريدج: «لكن التقرير هو مجرد ورقة في نهاية المطاف، ومن الدوافع الأقل أهمية وراء ذلك أن هناك عالماً من الناس في الخارج يشككون عميقاً في قدرة هذا البلد على الوصول إلى الديمقراطية. وأعلم جيداً في العمق أن لديهم أسباباً جيدة تدعوهم للشك. لست في الواقع وردياً ولست ساذجاً، كما يبدو في بعض الأحيان بخصوص هذا الموضوع. لكن يبدو لي، لأجل التاريخ، أنه من المهم أن يكون لدينا مجموعة من العراقيين الذين يخرجون وثيقة محترمة يمكن أن تؤخذ بجدّية، ويتم أخذها وتذكرها ومخضها واستخدامها على أنها نوع من أنواع الاختبار، ونوع من أنواع المقاييس التي يمكن بوساطتها قياس التقدّم في الأمور فيما بعد. وفي النهاية، فقد أنتجها

عراقيون، بحيث يمكن للعراقيين أن يرفعوا رؤوسهم ويخرجوا إلى العالم ليقولوا: لقد كنا نريد ذلك. لم تكن مجرد لعبة كلمات. لقد حاول بعضنا على الأقل».

في أواخر تشرين الثاني، دعي مكية للظهور في ندوة بجامعة نيويورك. كان جميع المشاركين الآخرين في الندوة –من خبراء أكاديميين وصحفيين تحرريين وديبلوماسي إنكليزي سابق– معارضين للحرب في العراق. شرح البروفسور مايكل والتزر، العالم والمفكّر السياسي الذي ألّف كتاب (الحروب العادلة والظالمة)، بطريقته الرقيقة المترددة أن الحرب في العراق لا يمكن أن توصف بأنها حرب عادلة. فليس هناك تهديد وشيك يستحق التدخل، وليست هناك أزمة إنسانية تبيح التدخل. كان الوقت المناسب للإطاحة بصدام هو عام 1988، عندما أباد قرى كردية كاملة بالغاز، أو في عام 1991، عندما ثار العراقيون على النظام، أو حتى في عام 1998، عندما تحدّى صدام العالم وطرد مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة. أما الآن، وقد بدأت جولة جديدة للتفتيش حالياً، ومع العملية الديبلوماسية الجارية في الأمم المتحدة، ومع منطقة حظر الطيران لحماية الأكراد في الشمال، فما هو السبب العادل للحرب؟»، قال والتزر: «ليس هناك مجزرة جماعية الآن». «هذا هو الصندوق الذي نحن فيه». وجادل والتزر بأن الإدارة في واشنطن تفكّر في حرب استباقية وليس حرب تدخل، وليس هناك أساس لنظرية الحرب العادلة في خيار حرب مماثلة. لا يزال الاحتواء جارياً، حتى لو كان العراقيون من بين أولئك الذين يتم احتواؤهم. والتزر، الذي كان مؤيداً متحمساً للتدخلات في البلقان في التسعينيات، الذي لم يكن لديه أوهام حول طبيعة النظام في بغداد، بدا غير سعيد باستنتاجه. لكن الأمر كان كذلك. ووافق الآخرون واحداً تلو الآخر. واستقرّ المدرّج المزدحم بالناس في إجماع مريح.

كان مكيّة آخر المتحدثين. وكان يرتدي جاكيتاً أسود اللون وقميصاً رمادياً مفتوح الياقة. انحنى نحو الأمام في ابتسامة اعتذارية وقال: «أخشى أنني سأقدّم ملاحظة مخالفة». وقال: إن النقاش كان نقاشاً أمريكياً أنانياً. فلم ينجح المشاركون الثلاثة الآخرون في الندوة في أخذ العراقيين أنفسهم في الحسبان، (الذين سيدفعون الثمن الأعلى في حال حصول الحرب، الذين تريد معارضتهم المنظمة الحرب بالإجماع). ووصف مؤتمر المعارضة المخطط له في أوائل كانون الأول، ثم انتقل إلى الحديث عن الانقسام داخل إدارة بوش. في ذلك الوقت

كان عدم الثقة قد وصل إلى حدّ أن البنتاغون ومكتب نائب الرئيس كانا قد أرسلا ممثلين لحضور اجتماعات مشروع مستقبل الدولة في العراق. وقال: «الدعم الأقوى للديمقراطيين والمستقلين يأتي من هؤلاء الصقور». «لدينا دعم أولئك الذين يدعون إلى الحرب، بول وولفوفيتز، والوزير رامسفيلد ومكتب نائب الرئيس. أما كولن باول المتعقل فمن الواضح أنه غير مهتم بذلك، ولا يريد أن تكون له علاقة بنا». نعت مكية باول بأنه «مسترضٍ».

وبعد أن زعزع فئات الحضور المستقرّة، مضى مكية يصف رؤية الديمقراطية المذكورة في التقرير. قال مكية: «هذه مادة راديكالية من العالم العربي»، «إنها مادة ناسفة». كاد ينتهي، وأصبح صوته أقوى، وأصبح في الغرفة طاقة مفاجئة لا أساس لها. وحصل على انتباه الجميع. «إن المعارضة العراقية هي شيء جديد في السياسة العربية. يمكن تشجيعها أو سحقها. لكن فكّروا فيما تفعلونه إذا قمتم بسحقها. إنني أسند قضيتي الأخلاقية إلى ما يأتي: إذا كانت هناك أقل فرصة لما قلت: إنه يحدث، إذا كان الاحتمال خمسة إلى عشرة بالمئة، فإن عليكم التزاماً أخلاقياً. وأنا أقول: قوموا بذلك».

انفجرت القاعة بالتصفيق. بدا المشاركون الآخرون في الندوة مذهولين. فمقابل الأسباب المعقولة لهؤلاء الأشخاص المتعقلين، كان مكية يقدّم شيئاً أكثر إثارة- كان يقدم وجه الأمل، مهما كان ضعيفاً.

قال والتزر: «الإجابة صعبة جدًّا».

كان ذلك صعباً؛ لأن رجلاً مثل والتزر، لم يرد أن يقف في طريق حلم شخص كمكية. لم يكن يريد أن يكون في الجانب الآخر لقضية أخلاقية كبيرة. وقد قال لي والتزر فيما بعد: «لن أنضمّ إلى حركة معارضة للحرب يمكن أن تقوّي صدّاماً»، وعندما سألته: هل من الممكن أن توجد حركة معارضة للحرب لا تقوّي صدّاماً؟، اعترف قائلاً: «يصعب جدًا أن نفكر في الشكل الذي يمكن أن تكون عليه حركة كهذه».

لكن بحلول شتاء 2002 - 2003، أصبحت هناك حركة معادية للحرب فعلاً، في الولايات المتحدة والعالم، وكانت تنمو بسرعة كبيرة، مع الزيادة الكبيرة المؤلمة وطقوس الديبلوماسية في الأمم المتحدة، حتى استوعبت طيف المعارضة كاملة، من لافتات المجموعات المتطرفة

التـي تقول: «لا لسـفك الدم من أجل النفـط» إلى الدعوات المعتدلة للتفتيش عن الأسـلحة، وتطبيـق القانـون الدولي، التي قامت بها منظمة Moveon. org ذات الجمهور الواسـع على شبكة الإنترنت. على الرغم من أن الرسالة كانت بسيطة، كرسائل معظم حركات الاحتجاج: أوقفوا الحرب. كانت هذه الكلمات تمحو كل الأسئلة الصعبة التي تثيرها فكرة الحرب على العراق. وفيما يخص الحركة المعارضة للحرب، كانت الأخلاق في صفّها بشكل كامل.

التقيت أكثر وجوه الحركة جاذبية في ذلك الشتاء في غرفة صفراء زاهية ترتفع طابقين عن شارع West 57 في مانهاتن، وهي غرفة صغيرة لدرجة أن ساكنها احترق بأنبوب التدفئة عندما اسـتدار في السرير، وكان يستطيع أن ينتقل إلى مكتبه دون أن يلامس الأرضية. كان إيلي باريسـر، وهو شـاب طويل ملتحٍ في الثانية والعشـرين من عمره، يمضي ساعات طويلة كل يوم على مكتبه، وهو منحنٍ فوق جهاز الحاسـوب المحمول، في إعداد إسـتراتيجية نيابةً عـن موقـع Moveon. org ويوجّه السـير الإلكـتروني لحركة آنيّة جمع جـزءاً منها في جهاز الحاسـوب الخاص به. وجمعتُ في ثلاثة أشـهر أعداداً كان جمعها يحتاج إلى ثلاث سنوات في حرب فييتنام.

كان والدا بريسر المطلقان، اللذان ربّياه في الريف في مين، محاربين قديمين من الستينيات. أما بريسـر فكان شـيئاً آخر: كان يصـف نفسـه بأنه وطني، وكان مهذّباً ومتعقلاً جدًّا، لديه نسـخة من الدسـتور على رف مكتبته، وكان قلقاً حول أثر الحرب في سمعة أمريكة في العالم. كان يبـدو أنه موجود، حتى لا تسـتطيع بقية البلد رفض الحركة المعارضـة للحرب بوصـفها ظاهرة هامشـية للمسالمين والمنكرين الشباب. قال لي بريسر: «أنا لا أدري ما المنطقي في أن نخاطر بكل ما نخاطر به، سـواء من حيث وضـعنا العالمي، أو من حيـث أرواح جنودنا، لأجل فكرة غامضـة، يظن أولئك الأشـخاص أنها يمكن أن تكون أفضـل دون ذلك الرجل؟». كانت هذه الفكرة الدقيقة ستصـنع قضـية، وحرّكت ملايين الأمريكيين. لكن أول ما يلاحظ فيها أنها محافظة بشـكل أساس. كان الاحتواء يحافظ على الوضع مع تصوّر الفضيلة الأمريكية. يعود بريسـر من جهة أبيه إلى اليهود الصـهاينة الذين ساعدوا في إقامة تل أبيب، ومن جهة أمه إلى اشتراكيين بولنديين. لكن معاداة الفاشيين التي ميّزت الشباب في اليسار تحوّلت، في صـحوة فييتنام والحركة الخضـراء، إلى نظرة عالمية أكثر حذراً، غالباً ما تصل في التطبيق

إلى الانعزالية. لم تكن الحرب التي اندلعت في زماننا ضد الفاشيين -في البوسنة وكوسوفو- مذكورة أو ملحوظة لدى جيل بريسر من الناشطين. وعندما سألت بريسر إن كانت رغبات العراقيين أنفسهم يجب أن تؤخذ في الحسبان، أجابني: «لا أظن أن هذا يتعلق بهم بالدرجة الأولى، والأكثر أهمية بقدر ما يتعلق بنا، وبالطريقة التي نعمل بها في العالم».

كان ذلك أكثر صدقاً من كثير مما سمعته في صباح 15 شباط 2003، في التجمّع المعارض للحرب الذي تم بالقرب من مبنى الأمم المتحدة. كان يوماً بارداً في نيويورك، لكن مئات الآلاف من الأشخاص لم يخشوا البرد (كما خرج الملايين في أنحاء العالم)، وملؤوا First Avenue من شارع 51 إلى شارع 72. خلف المنصّة المؤقتة، قدّم بريسر نفسه إلى دين كوسينيتش، رجل الكونغرس الديمقراطي من كليفلاند، الذي كان يلمّح إلى أنه قد يشنّ حملة معارضة للحرب وللرئيس. صرّح كوسينيتش، الذي صعد إلى المنصّة بعد بريسر قائلاً: «أثبت إيلي أننا في حقبة جديدة من النشاط ذي الجذور الخضراء. فأساس الوحدة البشرية ليس إلكترونياً فقط - الوحدة البشرية تسبق الوحدة الإلكترونية، ثم تقدمت بها أكثر. ويمثّل إيلي (المدّ المتقدّم) الذي قال إيمرسون: إنه «يوجد لنفسه حالة خاصة به. والسؤال هو الإجابة ذاتها)».

كانت روح إيمرسون في First Avenue. وهناك نوع قديم جدًّا من المحتجّين، كثورو صديق إيمرسون مثلاً، أو جون براون، اللذين كان يحترمهما، أو الأحدث كالإخوة بيريغان- الذين كانوا يرون السياسة بمنزلة تعبير عن الأخلاقيات الشخصية، الذين يعني لهم التفكير الإستراتيجي نوعاً من الخطيئة. وحالما تتم الإجابة عن السؤال الضميري الأساسي، لا يعود هؤلاء الأخلاقيون مهتمين كثيراً بالتفاصيل أو النتائج. وكما يقول ثورو: «إنهم لا يحضرون مؤتمرات تحضيرية، ولا يقومون بتسويات، ولا يستخدمون السياسة». كما أن لهذه الروح ميلاً إنجيلياً كذلك، وكانت تعود إلى الرئيس بوش بقدر ما تعود إلى خصومه المعارضين للحرب، الذين كانوا يعكسون صورة أحدهم للآخر في النظر إلى العالم عبر عدسة التقاطب الأخلاقي، لذلك لم تكن فكرة أن الحرب قد تقوّي وضع صدّام ذات أهمية. سألت ليسلي كاغان، مؤسسة المجموعة التي قامت بتنظيم التجمّع، إن كان المتحدّث الذي يريد أن يقدّم

بوضوح ملاحظات مؤيدة لصدام، سيمنع من الصعود إلى المنصّة. فقالت: «نحن نحاول أن نحذف الناس».

كان إيلي بريسر يرتدي بذلة وربطة عنق، وحين حصل على تسعين ثانية على المنصّة كاد يثب على أصابع قدميه في الهواء القطبي، ولم يستطع أن يخفي ابتسامته وقد أعلن إيلي للحشد المشجّع في First Avenue: «مقابل كل شخص موجود هنا، هناك مئة آخرون لم يستطيعوا الحضور». «أنا أعرف ذلك، فقد تلقيت رسائل إلكترونية منهم. إنهم من الأمريكان العاديّين الوطنيين السائدين». كان معظم المتحدّثين الآخرين أكثر تشدّداً، وأخذ الحدث في بعض الأحيان نبرة تجمّع تضامن مع العراقيين، والفلسطينيين، وكأن مصالحهم كانت واحدة. صرخت شابّة من تجمّع Def Poetry Jam: «نرسل حبّنا إلى الشعراء في العراق وفلسطين. فَلْتَبْقَوا بأمان!» أما فكرة أنه لم يكن في العراق أمان ولا حتى شعراء، وأن العراقيين، مع أنهم لا يرحبّون بتهديد القنابل، قد يكونون واقعيين بما فيه الكفاية؛ ليقبلوا الحرب على أنها أملهم الوحيد للتحرّر من الاستبداد، فقد كانت حرفيّاً غير موجودة. وغنّت ريتشي هافنز أغنية «الحرّية»، كما غنّتها في Woodstock، لكنني لم أستطع إلا أن أتساءل: لمن؟ كان المحتجّون يرون أنهم يدافعون عن العراقيين من القدر الرهيب الذي كانت الولايات المتحدة تستعدّ لإيقاعه بهم. لِمَ قد يريد العراقيون الحرب؟ كانت افتراضات الحركة تقوم على براءة أخلاقية، -مع عدم القدرة على تخيّل الرعب الذي يعيش فيه العراقيون- والرغبة بأن تجري الأشياء الجيدة جميعها معاً، وبالدفاع الكامل. ولأن الحرب شر، فلا بدّ أن يكون منع الحرب خيرًا.

في ذلك الشتاء، عاش الأمريكيون مدة تردد لا تحتمل؛ فقد كان كل واحد منهم يعلم في قرارة نفسه أن الحرب آتية. لكن القوى العظمى كانت تمثل دراما مصطنعة لتحاول تجنّب الحرب، وفي الفاصل الذي بدا أبدياً، انتعش نوع من الهستريا الكلامية على جميع الصعد. وكان أي شخص يطرح أسئلة شرعية تماماً حول الحرب يصبح مجاملاً، ووسمت أمم أوروبية كاملة بعار الاسترضاء. وفي كافيتريا الكونغرس، كانت البطاطا المقلية توصف بأنها بطاطس الحرية. وسبّبت حمّى الحرب اندفاعاً لهرمون التستوستيرون في أشخاص لم

obeikandl.com

يكونوا مقاتلين طوال حياتهم، واكتشفوا فجأة تشرشل الذي بداخلهم. وفي هذه الأثناء، كان يقين الرئيس بوش المتصلب يجعل خصومه يصوّرونه على أنه واحد من وحوش العدوان في التاريخ، ويقولون: إنه مضلل من قبل الصهاينة ومسمم بشهوة النفط. سافر السياسيون ونجوم السينما إلى بغداد وجذبتهم الدعاية البعثية. بقي بعضهم دروعاً بشرية، وكانوا يبذلون جهدهم للمحافظة على وحش حقيقي من وحوش العدوان في السلطة على شعبه المكمم الأفواه.

وسط هذا الضجيج، كان من الصعب التفكير بوضوح. سمح الكثير من الناس للتشابهات التاريخية أن تقوم بالتفكير عنهم. وفي النهاية وصلوا إلى حدثين مشابهين. قال لي ليون وايسلتير مؤلف كتاب (الجمهورية الجديدة): «لطالما فكّرت أن الناس في جيلنا، ربما في السنوات الخمسين الأخيرة في أمريكة، قد عملوا وفقاً لمشهدين رئيسين: أحدهما الحرب العالمية الثانية، والآخر هو حرب فييتنام. ويمكن أن تقسم المعسكرات حول استخدام القوة الأمريكية إلى أولئك الذين يستخدمون أنموذج الحرب العالمية الثانية، الذين يستخدمون أنموذج فييتنام». فيما يخص وايسلتير، كان المشهد الرئيس هو الحرب العالمية الثانية؛ لأن والديه قد نجوا منها في أوروبة. «لاتزال الحرب العالمية الثانية تجعلني أبكي. أما الأشخاص الذين يرون فييتنام على أنه مشهد رئيس -وهم كثر- فأتوقع أن قلة منهم فقط كانت تفكر بالطريقة ذاتها. كانوا يشعرون بنوع من العزلة التي يشعر بها المجروح أو المصدوم».

لكن الحرب العالمية الثانية وفييتنام لم يكونا دليلين موثوقين إلى العراق. كان توسّل ميونخ والاسترضاء من جهة، أو خليج تونكين والخداع من جهة أخرى، يبدوان طرقاً لإنهاء الخلاف وليس لإثارته. ودارت أكثر نقاشاتي حول الحرب حرارة وتشويشاً عندما كنت وحدي. كنت أبحث وأكتشف الأسباب الكثيرة المقنعة التي تجعل الحرب خياراً غير حكيم، ولا أجد في النهاية إلا أن صداماً كان لا يزال في السلطة، يعذّب شعبه ويتحدّى العالم. لم تكن حرب الإدارة هي حربي - لقد كانت حرباً مندفعة، وغير صادقة، وفيها تحيز لا يغتفر، ومدمّرة للتحالفات - لكن الاعتراض على المؤلفين وعلى طرقهم لم يبدُ سبباً كافياً للوقوف في طريقهم. فالإنسان لا يحصل على خيار الآخرين للحرب. ولأصف وضعي، كنت أنتمي إلى المعسكر الصغير غير المهم لليبراليين المؤيدين للحرب بشكل متناقض، فقد كنت

أدعم الحرب بالقدر نفسه الذي دعم به جمهور الناخبين آل غور. وقد اتخذت هذا الموقف انطلاقاً من التدخلات التي جرت في العقد الأخير في هاييتي، والبوسنة، وكوسوفو. كانت حرب العراق تدور حول شيء آخر غير حقوق الإنسان والديمقراطية، لكنها يمكن أن تقدّم فوائد مماثلة. كنت أريد إطلاق سراح العراقيين السجناء؛ كنت أريد أن أرى ديكتاتوراً قاتلاً يعزل من السلطة قبل أن يرتكب جرائم جماعية جديدة؛ كنت أريد أن أرى إن كان للمجتمع المنفتح فرصة للتجذّر في قلب العالم العربي. وأكثر من أي شخص آخر، كان كنعان مكية يوجّه تفكيري، وكنت أجد من الأسهل دائماً، أن أتخيل النتيجة السعيدة عندما أسمعه.

قبل الحرب، كان ما لا يقل عن ثلاثة ملايين عراقي يعيشون في المهجر، وفي الأسبوع الثاني من كانون الأول 2002 بدا أن معظمهم قد ظهروا في فندق لندن هيلتون ميتروبول. كان فندقاً جديداً فخماً على امتداد شارع إدغوار، على مقربة من محطة بادينغتون. كانت المصاعد والممرات البراقة تعجّ بالمئات من رجال الدين، والملكيين والضباط السابقين ورؤساء الأحزاب ورجال الأعمال، والمثقفين، والمخططين، الذين كانوا يشكّلون المعارضة العراقية في المهجر. كانوا بعمائمهم وعباءاتهم، وكوفياتهم أو بذلاتهم الرسمية، يحتشدون في مظهر تآمري، ويستحمّون بأضواء الكاميرات، ويلصقون هواتفهم الخليّوية بآذانهم، وقد لفت نظري أنهم لا يشبهون المستقلّين ذوي الفكر التحرري، الذين كان كنعان مكية يتحدث عنهم. كان بعضهم يشبه المسؤولين السمان من الجمهوريات السوفياتية في وسط آسية. أما رجال الدين الشيعة الملتحين بمظهرهم المهيب، فقد كانوا يذكّرون بكلمتي «الفتوى» و«الرجم». أما النساء القلائل جدًّا، فقد كان بعضهن مغطى بالحجاب الكامل.

كان الأمريكيون متناثرين بينهم، وقد اندسّوا بينهم بشكل ضعيف. كان هناك مبعوثون حذرون من وكالات حكومية مختلفة، وشخصيات أقل حذراً من جماعة تغيير النظام في واشنطن، وكان هناك فرانسيس بروك، مدير العلاقات العامة ذو الابتسامة المتعجرفة، الذي كان يعمل لدى الجلبي. كما كان هناك راندي شوينمان، الذي كان في السابق مساعداً لترنت لوت، وأصبح الآن في لجنة تحرير العراق، ودانييل بليكتا، الذي كان في السابق من بين الموظفين في لجنة العلاقة الخارجية لجيس هليمز، وأصبح الآن نائب رئيس معهد المؤسسات الأمريكي. وكانت هناك لوري ميلوري، الباحثة المستقلة الخرقاء، تبيع نسخاً من كتابها

الـذي ادّعـى إثبات ثوّرط العـراق في تفجير مركز التجارة العالمي عـام 1993، وحمل تعريفاً بالكتاب من باول وولفوفيتز، كما كان هناك شـاب قصـير نحيل يرتدي بذلة رسـمية، اسمه تشـارلز فورسـت، ويدور قرب الجدار، وقد بدا أنه يملك بعض المعلومات السـرية الخطيرة. كان تشـارلز فورسـت يعمل لدى منظمة ذات تمويل حكومي في واشـنطن، تعدّ لرفع قضـية قانونية ضـد صدّام حسين، لكن طريق مهنته عبر أعمال حكومية متعددة في الشرق الأوسط بدا غطاءً لقصـة جاسـوس، صاح تشـارلز فورست: «فجأة أصـبح النـاس يرون هذه المنطقة برمتها تهديداً لنا. فهي مشـتعلة كلها، وتشـكّل خطراً علينا»، «لقد آن الأوان، ويجب أن يتغير كل شـيء». كان هناك السـيناتور سـام براونباك، وهو مسـيحي محافظ من كنساس، يعقد مؤتمراً صحفياً مرتجلاً مع قادة أحزاب المعارضة، الذين قارنهم بجفرسون وآدم وفرانكلين. صـرّح السيناتور بروانباك: «الديمقراطية صعبة، لكنها حتماً الشكل الوحيد للحكومة، الذي يسـمح للناس بالتقدّم»: «لقد دعـا القدر هؤلاء القادة إلى حمل العـبء الثقيل لإعادة إحياء أمة». تحرك هؤلاء الأمريكيون عبر الحشد من عراقيي المهجر بحماس أخاذ وملفت كحماس التبشيريين بين المهتدين.

تم عرضـ فيلم عـن رواية غراهام غرين حول شـاب أمريكي في سـايغون لديه رف من الكتـب حول الديمقراطيـة ورأس مليء بأفكار بريئة إلى حد خطر، يعمل تحت غطاء لإيجاد «قـوة ثالثة» يمكن أن تغير صـورة فييتنام في أمريكة. كان فيلـم (الأمريكي الهادئ) جاهزاً للتوزيع بعد الحادي عشر من أيلول مباشرة، لكن مخاوف ميراماكس من أن يظن أن الفيلم غير وطني أخّر إطلاقه أكثر من سنة. لكن اتضح فيما بعد أن ذلك التوقيت كان هو الأفضل. كنت حذراً من معاداة غرين لأمركة، التي كانت شكلاً من أشكال التكبر البريطاني، وحالته النفسـية المتعبة، وحبّه للكاثوليكيين الغارقين في جحـور الأفيون. ومع ذلك، ففي عام 1955 كان يرى أن القدرة الأمريكية على ارتكاب الأخطاء والجرائم متناسـبة مع براءته وصلاحه الذاتي. كان من المسـتحيل عدم التفكير في هؤلاء المتطرفين الجدد بوصفهم الجيل الأحدث من الأمريكين الهادئين.

في فنـدق لندن هيلتـون ميتروبول، كان كنعان مكية يبدو غريـب المظهر، حيث كان يبدو أشـعث في أكمام قميصـه، وحذائه الجلدي، كان حليق الوجه كعادته. كان السياسـيون من

الأحزاب الكردية والشيعية والضباط السابقين يشتكون من أن مظهر مكية غير الرسمي يفتقد إلى الاحترام. وأسوأ من ذلك كله كانت الصراحة التي تحدّث بها مكية عن الحاجة إلى تجاوز «السياسة القديمة» للأحزاب العرقية.

كان يريد أن يصوّت المؤتمر مع تقريره أو ضدّه، وكان يخشى أن تقدّم بعض الأحزاب الأكثر عدداً –وخاصةً الأحزاب الشيعية غير السياسية– عروضها المعدّة بعجالة لتسبق عرضه. كان قد أمضى الأيام التي سبقت المؤتمر محاولاً إقناع كوندوليزا رايس ومبعوثها إلى المعارضة العراقية، زلماي خليل زاد، أن هناك تمثيلاً زائداً للأحزاب التقليدية، وأنه من الواجب إنقاص عدد الأعضاء المستقلين في المجلس الوطني العراقي، الذين يشبهون في تنوّعهم وأفكارهم العراقيين داخل العراق. كما أرسل قائمة بأربعين أو خمسين اسماً إلى خليل زاد، كتب في رسالته: «نحن المستقلين... جماعة صاخبة وعنيدة وصعبة»، «لكننا أقوياء فيما يتعلق بالقيم الرئيسة التي نريد أن نرى العراق بها، وهي قيم تعلمناها في النهاية من الغرب. وقد سخّرت ربع قرن من عملي حول العراق لنشر هذه القيم بين العرب».

كان خليل زاد، المفكر في وزارة الدفاع ومساعد ولفوفيتز مدة طويلة، الذي أعدّ (دليل التخطيط الدفاعي) الذي أثار الجدل عام 1992، في لندن للتأكد من أن المعارضة العراقية العنيدة تقدّم للعالم وجهاً موحّداً. لم تكن سياسة الإدارة حول العراق بعد الحرب واضحة أبداً، لكن خليل زاد أعلم العراقيين بأنه لن يتم اختيار حكومة مهجر أو «سلطة انتقالية» في لندن. ومع ذلك كان مكية هنا، مع مسانديه الأقوياء في البنتاغون، وفي مكتب نائب الرئيس، يرفض أن يمارس اللعبة، ويصر أنه هو وأصدقاؤه وزملاؤه المستقلون يمثلون الوجه الحقيقي للعراق، وأن الأحزاب التقليدية «ستصبح حتماً أكبر عقبة أمام النهضة الاقتصادية والسياسية للعراق التي أعلم أن الحكومة الأمريكية ترغب في رؤيتها تحدث». كان مكية والمؤتمر الوطني العراقي قد أقنعوا أنفسهم نوعاً ما بأن العدو الأكبر للعراق المحرّر سيكون البيروقراطيين في وزارة الخارجية، والسياسيين الأكراد والشيعة.

كان هناك شخص غاضب يناور خلف الكواليس. سأل ضابط من مجموعة العسكريين السابقين: «من هو كنعان مكية لكي يقترح هذه الأسماء؟». كان الجلبي عائداً من طهران،

بعد أن أبرم اتفاقاً مع الأحزاب الكردية والشيعية؛ لتشكيل حكومة مؤقتة على الرغم من الأمريكيين. ثم ثار المندوبون السنّة بشأن قلة أعدادهم. توسّط خليل زاد، الأفغاني الأمريكي الذي كان يفهم طبيعة سوق السياسة الإقليمية، في المسألة: فتمت زيادة أعداد السنة والمستقلين، وخفض أعداد الشيعة. كان مكية يسابق لترجمة تقريره البالغ 329 صفحة (عدا الملاحق وغيرها) وطباعته، على حساب الحكومة الأمريكية بما لا يقل عن ألفي دولار. وكان يتفاوض مع عدوّه القديم من وزارة الخارجية على السعر. قال مكية وهو يتنهّد: «أستطيع أن أعدك»، «لا أحد يريد أن ينفق المال على هذا».

كان مكية أسوأ عدو لنفسه بوصفه سياسياً. فقد كان يستخدم في الشجار الأسلوب الجدّي الشديد الذي جعل كتابته قوية جدًّا، وجعل الجميع بمن فيهم أصدقاؤه يهزّون رؤوسهم. ربما كان في أعماقه في مياه السياسة العراقية الخطيرة: كان كاتباً، وكان يفكر لنفسه، لم يكن يهتم بالتحالفات والاتفاقيات قط. وكان في عام 2002 أراح نفسه بدخول التيار، ثم انغمس فيه، وانجرف معه. كان يريد أن يتحكم في مساره التاريخي، لكن كما كتب راندولف بورن عن المثقفين الأمريكيين الذين ذهبوا للحرب في أوروبة عام 1917، ولديهم أسمى الدوافع الإنسانية، «إن كانت المسألة هي التحكم في الحرب، فمن الصعب أن نرى كيف يمكن لطفل يجلس على ظهر فيل مجنون أن يكون أكثر تأثيراً في إيقاف الوحش من الطفل الذي يحاول إيقافه من الأرض». كان مكية متغطرساً، ومثالياً، ومتهوراً، وشجاعاً. ماذا كان بإمكانه أن يفعل غير ذلك؟

ذات مساء، التقى مكية وصديقه سام الجلبي في بلومسبيري، على مقربة من بيت أهل مكية، مقابل المتحف البريطاني في كافيتريا بجانب مكتبة الشرق التي كانت تديرها أرملة إنكليزية عجوز، وحيث كان مكية يحب أن يتجول أيام شبابه. كان الجلبي، الذي يظهر من شكل رأسه وبروده الغامض المقصود ابن شقيق من هو، أقرب المعاونين لمكية في إعداد التقرير، لكن في أثناء تناول الكابوتشينو قال لمكية: إن صراحته كانت تؤذي قضيتهم. اعترض الأكراد بشدة على اقتراح فدرالية غير عرقية، مما يعني نهاية لتجربتهم للحكم الذاتي على مدى عقد من الزمن. لقد ناضلوا بشدة للحصول على اعتراف ووضع مساوٍ للعرب، ولن

يتنازلوا عن ذلك دون قتال. كما أن رأي الحزب الشيعي عن القسم المتعلق بالدين والدولة لم يلتمس بعد. أما السنَّة فكانوا الأكثر غضباً. لم يكن هناك شمولية.

أومأ مكية برأسه، وقال: «لقد بدأت أكره كلمة الشمول هنا، أعرف أن هذا سيعني أقل قاسم مشترك. ولن يقال شيء له معنى». كان يتعرّق، وكان العرق يرسم خطاً عميقاً في جبهته. لم أره متوتراً بهذا الشكل من قبل، بدا منهكاً. وكان هاتفه الخليوي الذي حصل عليه مؤخراً، يربكه. بدا أن أشهر العمل والضغط الذي يتحمله بإرادته، والعاصفة التي تدور حوله قد ألقت عليه إجهاداً لا يطاق.

«قال الجلبي، الذي كان يعمل محامياً في اندماج الشركات والاستملاك: إنهم ينظرون إليك بوصفك متطفلاً يفرض عليهم شيئاً. لنركز على أجزاء الوثيقة التي يمكن للآخرين أن يتبعوها: حقوق الإنسان، العدالة الانتقالية».

«إنهم يريدون الخروج من هذا الأمر أسرة واحدة كبيرة سعيدة. إنهم يريدون إظهار الوحدة والتأييد للأمريكيين. وأنا أريد أن أكسب شيئاً ملموساً». كان مكية يريد أن تلتزم المعارضة بمجموعة من المبادئ وتقوي يد الأمريكيين قبل أن يبدأ إطلاق النار، وتأخذ الحرب مجراها. «لكنني أخشى أننا نخوض معركة خاسرة».

أصرّ الجلبي قائلاً: «لا أريد أن أستسلم، أو أنسحب من الوثيقة»، «لكن عليك أن تلعبها كلعبة».

نظر مكية إلى الجلبي بعجز، وقد بدا الضيق على وجهه. «أظن ذلك».

أصرّ الجلبي على مكية أن يخفف من انفعاله، فَلاَن.

في مساء ذلك اليوم، ذهبت إلى مكاتب المجلس الوطني العراقي في نايتسبريدج الفخمة. في الطابق العلوي، كانت مجموعة من الموظفين الشباب المتأنقين تلتف حول رجل أصلع مكتنز يجلس على أريكة، ويجيب عن الرسائل الإلكترونية، بينما يستمع إلى مقطوعة موسيقية لألبينوني Adagio in G Minor على أسطوانة ليزرية. كان ذلك الرجل هو أحمد الجلبي. وكان يرتدي بذلة بنية مقلمة بخطوط رفيعة، ولها صفان من الأزرار وربطة عنق صفراء من

الحرير، وقد ربطها ربطة ويندسور. نظر إلي، ورحّب بي بابتسامة مهيبة، كانت تعبيره العام الدائـم، لم يكن هناك وقـت للحديث؛ فقد كان عائداً قبل برهة قصـيرة من طهران ولديه عمل سيستمر إلى الليل.

ذهبت في جولة قصـيرة في السـيارة مع الجلبي ومكية وآخرين. تلقى مكية اتصالاً على هاتفـه الخليـوي: كان يتكلم عن جلال طالباني، أحـد القائدين الكرديين. «إنه ماركسـي، غروشوماركسـي»، قال الجلبي ضاحكاً: «لا تعـجبك مبادئي؟ لـدي مبـادئ أخرى».

التفت إليّ نبيل الموسوي، اليد اليمنى لجلبي. كان رجلاً طويلاً وسيماً، عمل سابقاً مديراً لمطعـم بيتزا، وكان يرتدي «كنزة» ذات قبة عالية وجاكيتاً، وله لحية خفيفة مشـذبة بعناية. «المسـتقلون هم المرحلة الأكثر تقدماً بين سياسـة الماضـي وسياسة المسـتقبل، وأنا لا أعني بسياسة الماضي الأحزاب التقليدية فقط، وإنما وزارة الخارجية أيضاً، بتفكيرها المتهكم أن العرب لا يمكنهم الحصـول على الديمقراطية، وأنهم بحاجة إلى شـخص قوي ليحكمهم». وهنـا هدأ الجدال، لكن كان من المثير قضـاء سـاعة في الدائرة الداخلية للجلبي والشـعور باليقين المنعش، الشـعور بمجموعة من النخبة تقود موجة ضـخمة من التاريخ إلى مسـتقبل يعود إليهم.

قد يكون عالم العراقيين في لندن من صـنع كونراد: وهو مالك مقهى كان مؤسسـاً للجنة الصداقة بين العراق وإسرائيل التي كانت محظورة في كلا البلدين، والمحرر الصحفي الذي احتفظ بصورة مع صدام من الماضي، وكان يخطط لإنشاء جريدة اسمها بابل تايمز عندما يعود إلى بغداد، والصـحفيين العاطلين عن العمل الذين كانوا يعملون بمحافظهم الجلدية، والجلسـات الإسـتراتيجية حول الحمّص والكباب في كافيتريا لندن الخارجية، والمحادثات المغمورة بالحنين في غرف الجلوس عند احتساء الشاي ليلاً، والدسائس المريرة بين الرجال الذين كان بعضـهم يعرف بعضـهم الآخر بشـكل جيد، بعيداً عن موطنهم الأصـلي، وكانوا متشـابهين أكثر مما يعرفون. لقد ظلوا نصف حياتهم ينتظرون حدوث هذا الحدث الهائل. كان ذلك عائداً للأمريكيين.

وصل مصطفى القديمي إلى لندن عام 1999 ولم يكن يحمل إلا درفة نافذة منقوشة من بيت عائلته في أحد أحياء بغداد القديمة. عندما التقيته كان في الرابعة والثلاثين من عمره، لكن وجهه الضعيف المنهك، وشعره الذي تغطيه البقع الرمادية جعلاه يبدو أكبر عشر سنوات. قال لي مصطفى بنبرة عادية: «لدي قصة مأساوية». لقد ولد في عائلة من التجار الشيعة الأثرياء، لكن البعثيين صادروا المنزل، ثم الشركات، وأخيراً بدؤوا باعتقال إخوة مصطفى الذين انضموا، كآلاف الشيعة، إلى حزب الدعوة المستلهم من الخميني في أوائل الثمانينيات. وحتى مصطفى كان مشتركاً في حزب الدعوة، وعندما تم اعتقال أصدقائه الثلاثة وقتلهم، هرب من بغداد عن طريق الشمال. كان ذلك في عام 1988، حين كانت عملية الأنفال على أشدّها. ائتمنت عائلة من اللاجئين الأكراد من إحدى القرى المدمّرة مصطفى على ابنتهم ذات السنوات الخمس، لكن في طريقه إلى الحدود التركية كانت طائرة مروحية من سلاح الجو العراقي تطير على ارتفاع منخفض، وأجفلت الحصان الذي كان يركبه مصطفى والفتاة. فسقطت الفتاة وماتت بين يديه «إنها صورة لا أستطيع أن أمحوها من رأسي».

كانت عائلة الفتاة قد رحلت إلى طهران، حيث وجدهم مصطفى ونقل إليهم الخبر الرهيب. أظهرت له السنة التي أمضاها في إيران الثيوقراطية «الوجه الحقيقي للفكر الإسلامي». لم تذكره بشيء كما ذكرته بالنظام في بلده؛ حتى إنه سجن مدة أربعين يوماً بعد نشر مقال في الجريدة عدّ أن فيه كفراً. وبعد عام 1989، بدأ مصطفى عقداً من التجوال. فقد ذهب من إيران إلى سورية، ولبنان، وأخيراً إلى الجزر اليونانية، حيث عمل نادلاً في أحد المنتجعات. وذات يوم في منتصف التسعينيات، كان من النزلاء جورج بوش الأب، وبينما كان يقدم الطلبات لمائدة الرئيس السابق، استجمع مصطفى الشجاعة الكافية ليتقدم ويسأله: لماذا تركت الحكومة الأمريكية صداماً في السلطة ليذبح العراقيين المتمرّدين بعد حرب الخليج عام 1991؟. وعندما التقيت به، كان لا يزال في انتظار الإجابة. وفي لندن، عمل مصطفى حمّالاً في فندق، لكنه سرعان ما وقع في دائرة المجلس الوطني العراقي، والتقى كنعان مكية، الذي حوّلت كتبه عقل مصطفى، وأكملت تطوّره إلى ديمقراطي ليبرالي.

لم أعرف تماماً كيف كان مصطفى يكسب لقمة العيش (كانت زوجه تنتظر مولودهما الأول). كان له صلات مع إذاعة أوروبة الحرّة وجريدة المجلس الوطني العراقي الأسبوعية، وكان مكتوباً على بطاقة عمله «مؤسسة شؤون العراق المستقبلية». قبل شهرين كان في دمشق، تعرّف أحد سائقي سيارات الأجرة على لهجته، وقال له: «مبروك. فالأمريكيون قادمون لمساعدتكم. لنأمل أن يأتوا لمساعدتنا بعد ذلك». وأكّد لي مصطفى أن هذا هو رأي الشارع العربي، وليس الرأي العدائي في وسائل الإعلام العربية. قال مصطفى: «مشكلة العرب هي أننا نعيش على تاريخنا». «والتاريخ كذبة كبيرة». كان مصطفى خجلاً من إنكليزيته، لكن كان لديه طريقة ساخرة من اللغة. كل ما كان يعنيه، هو أن يكون الرئيس القادم للعراق امرأة أو رجلاً بلا شارب. لقد خسر في المهجر كل شيء تقريباً. فقد ماتت أمه التي لم يرها منذ عام 1988، في بغداد بعد أشهر قليلة من بداية الحرب التي كان من الممكن أن تجمعهما من جديد. كان مصطفى أحد الفارّين من الديكتاتورية الذين علّقوا حياتهم كلها في انتظار سقوط النظام. أمضى يوماً كاملاً يدور بي بسيارته في الجزء العراقي من لندن، وهو يصرّ على دفع كل التكاليف. وعند الوداع، قبّل خدّي بحرارة، ووعدني أن نلتقي قريباً في بغداد. كان من المستحيل ألا أتمنى ذلك أيضاً.

في القاعة الكبرى في فندق لندن هيلتون ميتروبول، كان مكية يجلس إلى طاولة طويلة بجانب أحمد الجلبي وبعض شخصيات المعارضة الأخرى أمام حشد من الصحفيين. وكان غياب قادة الأحزاب العرقية واضحاً. كان مكية قد وعد بألا يقول شيئاً، وكان عند كلمته مدة. لكن عندما بدأ الصحفيون بتوجيه الأسئلة إليه، وصف ما كان في التقرير، واحتدّ كالعادة. «إنه يحمل فكرة جديدة تماماً لا توجد في أي مكان من العالم العربي المسلم. هذا شيء هائل، شيء لا يصدّق. نحن نتحدّث قبل كل شيء عن فكرة ديمقراطية، ليست فقط حكم أكثرية، فكرة ديمقراطية حول حقوق الأقليات، وحقوق المجموعات، وقبل كل شيء حقوق الأفراد».

انتشرت التمتمة بين الصحفيين، وانتشرت موجة من الإثارة. من هو هذا الرجل؟ إنه لا يبدو كطابور المتحدّثين الذين كانوا يدندنون طوال عطلة نهاية الأسبوع.

openkandil.com

قال مكية: «على فكرة، إنها وثيقة حرب». «فنحن ننوي أن نحارب من أجلها على أساس المؤتمر».

عندما انتهت الجلسة، تحلّق الصحفيون حول مكيّة. أسرع إلى القاعة هوشيار زيباري، قائد أحد الأحزاب الكردية، وكان غاضباً محمرّ الوجه، وكان يخبر كل من يستمع إليه أن وثيقة مكية ليس لها سلطة على المؤتمر.

سألت زيباري فيما بعد عن رأيه في أفكار مكية حول الفدرالية، والأحزاب العرقية، والسياسة القديمة والجديدة. كان زيباري (الذي سيصبح فيما بعد وزير الخارجية القدير للحكومة العراقية الجديدة، وأول كردي يشغل هذا المنصب في تاريخ العراق) رجلاً غليظ الطباع له شارب أسود كثيف. كان يضحك في أثناء السؤال، لكنه ظل يضربني على صدري وهو يتحدث. وقال زيباري: «نحن متجذرين في البلاد، نحن الذين عانينا. ماذا فعل كنعان مكية، أنا أقدّر عمله الفكري، لكنه ليس سوى رياضة فكرية».

فقلت: «إن مكية يحاول أن يتفرغ له بجدية».

قال أمريكي يرتدي بذلة زرقاء، كان يدور حولنا ونحن نتحدث: «إنه الوحيد». لقد كان ذلك الرجل هو ديفيد ل. فيليبس، المسؤول في مجلس العلاقات الخارجية، وكان قد تشاور مع وزارة الخارجية حول مشروع مستقبل العراق. «ليس التقرير وثيقة سياسية، إنه ليس مخططاً. وإذا أصبح كذلك، فإنه سيكون محل خلاف». انتقد فيلبس مكية بحدّة لاحتكار كتابة التقرير، ومن ثم الضغط بشدة لفرض أحكامه. كانت أفكاره عالية جدًّا، وكانت تسبق وقتها كثيراً، بحيث يصعب أن تتاح لها فرصة كي تتحقق قريباً. «العراقيون غير مستعدّين لسياسة جديدة. فالتركيبات القبلية والتجمعات العرقية، تعني الكثير للعراقيين. إنها مهمة. هذا ليس مختبر برانديس».

انتهى مؤتمر لندن بتعابير الوحدة والدعم لذلك الشيء الغامض المسمّى الديمقراطية في العراق، لكن لم يتم تشكيل حكومة مؤقتة، كما أن تقرير مجموعة عمل المبادئ الديمقراطية، الذي تمت طباعته وتوزيعه، مع مئات الصفحات من الملاحق والمعارضات، لم تتم مناقشته رسمياً قط. وفي واشنطن، شكر المسؤولون المجموعة لمشورتها، ووضعوا التقرير الذي طالما

سعت وزارة الخارجية للحصول عليه جانباً. كان مكية قد تحداهم لإثبات وجهة نظرهم، وهم يتحدّونه الآن.

استمرت الحركة في اتجاه الحرب بالتقدم نحو الأمام، سواء بالمبادئ الديمقراطية أو دونها. استفزّ مكية قسماً كبيراً من المعارضة العراقية، لكن كان لا يزال له مؤيدون أقوياء في واشنطن. في 10 كانون الثاني 2003، تم إيصال مكية ورند رحيم، وطبيب من عائلة سنّية بارزة في تكريت يدعى حاتم مخلص إلى المكتب البيضاوي لاجتماع مع الرئيس وتشيني ورايس وخليل زاد، سألهم بوش عن قصصهم الشخصية، لكن المغتربين قضوا أيضاً جزءاً كبيراً من الوقت، وهم يشرحون لبوش أن هناك نوعين من العرب في العراق هم السنة والشيعة. كانت فكرة المعارضة العراقية ذاتها تبدو جديدة عليه. لفت نظر مخلص أن بوش لم يكن مركّزاً على المسائل الرئيسة لمستقبل الجيش العراقي، واجتثاث حزب البعث والحكومة الانتقالية. «لكننا كنا نرى بعينيه، وكنا سنذهب للحرب». احتفظ تشيني بأفكاره لنفسه؛ كان يبدو متوتراً. كان من الواضح أن الإدارة لم تكن قد استقرّت بعد على خطة حول مرحلة بعد الحرب.

حاول مكية أن يثبت وجوده. وحثّ هو ورحيم الرئيس على إعلان حكومة مؤقتة للعراقيين في المهجر قبل الحرب. قال مكية: «لقد تم غسل دماغ العراقيين في الداخل. وستكون حكومة المهجر مستعدّة لاستلام السلطة عند حدوث التغيير». أخبر مكية الرئيس بأن تحركاتهم ستغير صورة أمريكة في العالم العربي، تلك الحرب قد تكون قوة للتقدّم والديمقراطية، قال مكية: «سيرحّب الناس بالقوات، وسيستقبلونها بالسكاكر والورود».

وافق مخلص، لكنه أضاف: «إذا لم تكسب قلوبهم في البداية، إذا لم يحصلوا على منافع، فبعد شهرين قد ترى مقديشو في بغداد». كما قدّم مخلص للرئيس تحذيرين آخرين: إن حكومة المهجريين لن تكون مقبولة من قبل العراقيين داخل البلاد، كما أن حلّ الجيش العراقي سيغيّر من طبيعة القوات الأمريكية هناك، من محررين – كما قال بوش: إنه يريدهم أن يكونوا – إلى محتلّين. سأل بوش إن كان العراقيون يكرهون الإسرائيليين؟ ومن جديد قدّم مكية ومخلص، اللذان كانا زميلين في المدرسة الثانوية اليسوعية في منتصف الستينيات،

رأيين متناقضين، فقال مكية: إن العراقيين يركّزون كثيراً على الظلم الواقع بهم؛ أما مخلص فقد أصرّ على أنهم قد تربّوا وتعلّموا في المدارس على أن يكونوا معادين للصهيونية. كما اختلف مكية ومخلص أيضاً حول طبيعة المجتمع العراقي. فقال مخلص: إنه لا يزال قبلياً بقوة؛ أما مكية فجادل قائلاً: إن العراقيين قد أصبحوا في أثناء السنوات الخمسين أو الخمس والسبعين الماضية مواطنين مهندسين وأطباء، قادرين على تشكيل دولة حديثة. لم يتبع أحد في القاعة التناقض الواضح بين هذا التفاؤل وبين رؤية مكية لأمّة مغسولة الأدمغة.

غادر كل من العراقيين الاجتماع مقتنعين أن بوش يرى الأمور بالطريقة التي يراها. قال مخلص لاحقاً: «اعتقدت أن بوش فهم من أين أتيت. في ذلك الوقت، كنت مقتنعاً تماماً أن العراق سيصبح جنّة».

خرج مكية من البيت الأبيض وأعلن أنه «متأكد تماماً» من إخلاص الرئيس للديمقراطية العراقية.

وبعد شهرين، في منتصف آذار، ظهر نائب الرئيس تشيني في برنامج لقاء الصحافة، وأخبر البلاد أن القوات الأمريكية ستلقى الترحيب بوصفهم محررين في العراق.

ألحّ تيم روسيت عليه: «إذا لم يكن تحليلكم صحيحاً، وإذا لم نعامل معاملة محررين، بل غزاة، وبدأ العراقيون بالمقاومة، خاصة في بغداد، فهل تعتقد أن الشعب الأمريكي مستعدّ لمعركة طويلة، مكلفة ودامية تؤدي إلى خسائر أمريكية كبيرة؟».

لم يكن تشيني قلقاً، فقد قال بطريقته المكبوتة المهدّئة: «حسناً، لا أظن الأمر سيصبح بهذا الشكل، تيم، لأنني أؤمن بالفعل بأن العراقيين سيرحبّون بنا بوصفنا محرّرين. لقد تحدّثت مع كثير من العراقيين في الأشهر الأخيرة بنفسي، ودعوتهم إلى البيت البيض. التقيتهم أنا والرئيس، مجموعات وأفراداً مختلفين، أشخاصاً سخّروا حياتهم من الخارج؛ ليحاولوا تغيير الأمور داخل العراق. ومنهم كنعان مكية، العراقي المدرّس في براندیس، لقد كتب كتباً عظيمة عن الموضوع، وهو يعرف البلاد عن قرب، وهو جزء من المعارضة والمقاومة الديمقراطية. القراءة التي حصلنا عليها عن شعب العراق هي أن قضيتهم الأساسية أنهم

يريدون التخلص من صـدام حسـين، وأنهم سـيرحّبون بالولايات المتحدة، بوصفها محررة عندما نأتي للقيام بذلك».

عند سماع هذه الكلمات، شعر فيصل إسترابادي، المحامي في شيكاغو، بأن قلبه يتحطم. «كنت أعلم أن من أمضى أربعة عقود في المهجر لا يعرف ما يجري في العراق. لم أكن أعلم، ولم يكـن كنعـان يعلم. الفرق الوحيد هو أنني كنت أكثر حـذراً. كان دائماً يقطع وعوداً يعلم أنه لن يستطيع الوفاء بها». كان مكية يعلم أن «السكاكر والورود» لا يعقل أن تكون الردّ، قال إسترابادي: «لكنه كان يعلم أيضاً أن بوش لم يكن يعرف بشكل أفضل. كان يريد فقط أن يدخل بوش إلى العراق. كما كنا نريد جميعاً».

كان تشيني محقـاً في أمر واحـد: كتب مكيـة كتباً عظيمة حول الموضـوع، ففـي كتابيه: (جمهورية الخوف) و(قسوة وصمت)، نظر دون تردّد إلى العراق الاستبدادي ونتائج إرهاب البعثيين، والحطام البشـري الذي أنتجه، ومظهـره ورائحته. وبعد حرب الخليج، عندما أعدّ مكية والمعارضـون الآخرون الميثاق رقم 91 الذي يحدد مبادئ التعايش لعراق جديد، اسـتلم مكية رسالة شديدة اللهجة من صديق قديم، كان صادقاً وشجاعاً بما فيه الكفاية لإعادة طبع كتاب (قسـوة وصـمت): «أعتقد -وأرجو أن تسـمح لي بقول ذلك- أن الأفكار التي وردت في الميثاق تصدر من برج عاجي ارتفع عالياً نحو السماء، لدرجة أننا نحن الواقفين في الأسفل لا نكاد نستطيع أن نرى أو نسمع من أين تأتي. نحن نرى أن مجتمعنا اليوم قد أصبح كما في عام 1984. ليس هناك من يتذكر أو يجرؤ أن يتذكر معنى كلمات مثل «الحرية» أو «الديمقراطية» أو «الأخوّة» أو «الإنسـانية». لم يعودوا يعرفون ما هي «حقوق الإنسـان». أعني، ما علاقة هذا بهم؟!... إن همّهم الوحيد هو النجاة والحياة، كالخراف».

كان مكيـة يعـرف هذا كلـه، وحين عبر الجبال المليئـة بالثلوج، في أواخـر كانون الثاني، على طول الحدود بين إيران وكردسـتان العراق مع مجموعة صـغيرة ضـمّت أحمد الجلبي، والتقى رفاقاً قدامى في مدينة صـلاح الدين الكردية، وهدّد رجل لا يعرفه حياته ذات ليلة، أرسل مكية رسالة إلكترونية إلى بعض الأصدقاء يصف فيها الحادث. وكتب فيها: «هذه هي المادة الإنسـانية الخام التي تريد أن تصـنع الديمقراطية لها. كل يوم في الأسـابيع الخمسة

الأخيرة من رحلاتي، كنت أمرّ بأشخاص مدمّرين ومجروحين، أشخاص يتنفّسون الوطنية والطائفية دون أن يعلموا، وأشخاص شوفينيين ومشككين بالعراقيين الآخرين. هذه هي حقائق الحياة للجيل القادم في هذه الأرض الفقيرة المدمّرة. لا تفكر حتى في العودة إليها بعد التحرير، إن لم تكن مستعداً للتعامل مع تلك الحقائق».

ذكرتني قراءة هذه الكلمات بالصوت الذي سمعته أولاً قبل أن ألتقي مكية –صوت كتبه التي لا تعرف الخوف–. كان مكية يعرف بوصفه كاتباً ما أصبح العراق عليه. لكنه لا يزال الآن يؤدي دوراً رئيساً في دراما تاريخية عظيمة، في حدث على مستوى ضخم وجريء لدرجة أن أحداً لم يستطع أن يتخيل المدى الكامل للنتائج. لقد أصبح سياسياً، وكتب في رسالته الإلكترونية من كردستان: «السياسة هي القاضي الأكثر قسوة في العالم». (...).

كل ما كان يحلم به طوال حياته أصبح فجأة في متناول يده. لن تتاح له فرصة ثانية، ولم يكن مستقبله مؤكداً، فقد شخص الأطباء مرض مكية، وأكدوا أنه مصاب بالشكل نفسه من اللوكيميا التي قتلت إدوارد سعيد. لذا جعل نفسه ينسى ما كان يعرفه مدة طويلة بما فيه الكفاية ليقول بضع كلمات لرئيس الولايات المتحدة ستصبح ذات يوم صفة ظاهرة في نعيه.

كان صوت القنابل الأولى تسقط على بغداد، صوتاً مبهجاً. وبعد ثلاثة أسابيع، في 9 نيسان، جلس مع الرئيس في البيت الأبيض، وشاهد تمثال صدام حسين يسقط على الأرض في ساحة الفردوس ببغداد، وبكى. وبعد ذلك بدأت المشكلات.

obeikandl.com